ما وراء البحار

أو

النبوغ العربي في العالم الجديد

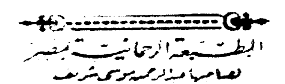
« عنى بجمعه ونشره »

توفيق الرافعي

(حقوق الطبع محفوظة)

يطلب من





مقدمة



الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فقد سبق لنا فى خاتمة كتابنا « أمين الريحانى » أننا وعدنا القراء باطلاعهم على شىء من أساليب النبوغ العربى فيما وراء البحار ووفاء بوعدنا نشرع فى تقديم مختاراتنا من كتابات أساطين الأدب العربى فى البلاد الأمريكية ولا يعزب عن فكر المطالع اللبيب أننا أشرنا هنالك الى سبب تقديم الاستاذ الريحانى وأفراده بكتاب خاص وهو حلوله دار الضيافة بالشرق وسبقه غيره من أدباء السوريين فى الاهتمام بزيارة بلاده الشرقية ، مسقط

رأسه ومهد طفولته الذى منه درج ، للوقوف على حاها
وا كتتناه مسائلها وما فاتنا الاشارة الى أننا نعرف من
أدباء السوريين في مهجرهم من هم والريحانى رضيعا لبان أو
فرسا رهان إن لم نقل بتفوقهم على الريحانى نفسه فوفاء
للأدب بحقه وتكريماً للعلم وأهله من الزائدين عن حقيقته
والمانعين لحرمته والحافظين لمودته وجب علينا أن نبادر
فنشفع كتاب « أمين الريحانى » بكتاب النبوغ العربى
ليطلع الشرقيون على مبلغ علم أحفاد الفينيقيين فى مهجرهم
فيعرف مقدار نهضتهم وكيفية منازعهم فلا يبخس الناس
أشياءهم ، وحسبنا فخراً أن الريحانى وكل ما نختار له شيئاً فى
كتابنا هذا ممن ترعرع فى بلادنا وتغذى بغذائنا ونشق
ريح لبناننا ودليلنا أن القراء الكرام قريبوا عهد بما كتبناه
عن حياة الريحانى وكيفية نشأته ومبدأ هجرته وهو أحد
رجال تلك النهضة العلمية التى تضم بين أحنائها نبغاء
السوريين فى دار هجرتهم وفى طليعتهم الاديب النابغة جبران
خليل جبران فهو أحد أعضاء الرابطة القلمية وابن لبنان

الجميل ورضيع ثدى العلم فى الرياض البيروتية وقد قاسمهما النشأة والنبوغ زميلهما النحرير مخائيل نعيمه . فبعد أن ارتشف من معين العلم فى سوريا هاجرها إلى البلاد الروسية طلباً لمزيد العلم وتجويد الاطلاع ثم آم البلاد الامريكية وهناك تجلى نبوغه وأدبه بعد أن دخل إحدى جامعاتها فزاع صيته وعلا قدره بين جميع من يتذوق طعم الآداب ولا يغيبن عن بال القارئ ذاك النابغة وعضو تلك الجامعة إيليا أبى ماضى شاعر العرب الامريكى وحفيد لبنان الكبير وربيب الدراسة فى البلاد المصرية ونزيل القارة الامريكية وصاحب أحد الدواوين الشعرية وما أنس من الامجاد لا أنس المتأدب الهمام عبد المسيح حداد صنو هؤلاء الاعضاء الناهضين وكذلك النوابغ رشيد أيوب وأمين مشرق ووليم كاتسفليس ونسيب عريضه أركان الادب القوى وحصنه الحصين

وحسبنا من سيرة هؤلاء الافذاذ النابغين أنهم أنصار الآداب العربية فى بلاد لا صلة بينها وبين آداب

الشرقيين فقد كتبوا وجودوا ونظموا فأبدعوا وترنموا فأطربوا ونادوا فأسمعوا بيد أنا ونحن فى مقام الاعتراف بالجميل وحب اطلاع القراء على شىء من مختاراتنا من كلام أولئكم الادباء رأينا من الحسن أومما لا مندوحة لنا عنه أن نلفت ذهن قارئنا الفطن الى نقطة هامة وبودنا أن نجعلها نصب عينيه وأمام خاطره حين مطالعته كتابنا هذا بل ومطالعة كل ما نختاره من كتابات اخواننا فى المهجر وهى أن هذه الطائفة المتأدبة قد تضلعت بعد هجرتها بآداب الغربيين فخالطت تلك الآداب نفوسهم وانطوت عليها جوانحهم فربما تغالوا فيها حينما يريدون مزجها بالآداب العربية فلا يراعون فى شعرهم قوانين القريض العربى ولا يتقيدون بأوزانه وقوافيه بل يطلقون لملكاتهم الاعنة خلف الاساليب الغربية فيجىء شعرهم ونثرهم رافلا فى حلله الغربية أكثر منه اتشاحاً بالحبرات اليمانيــة والبرد النجدية والاكسية العراقية والسمات العربية ولكل وجهة هو موليها

على أننا لو أرجعنا البصر الى تاريخ الآداب العربية لرأينا

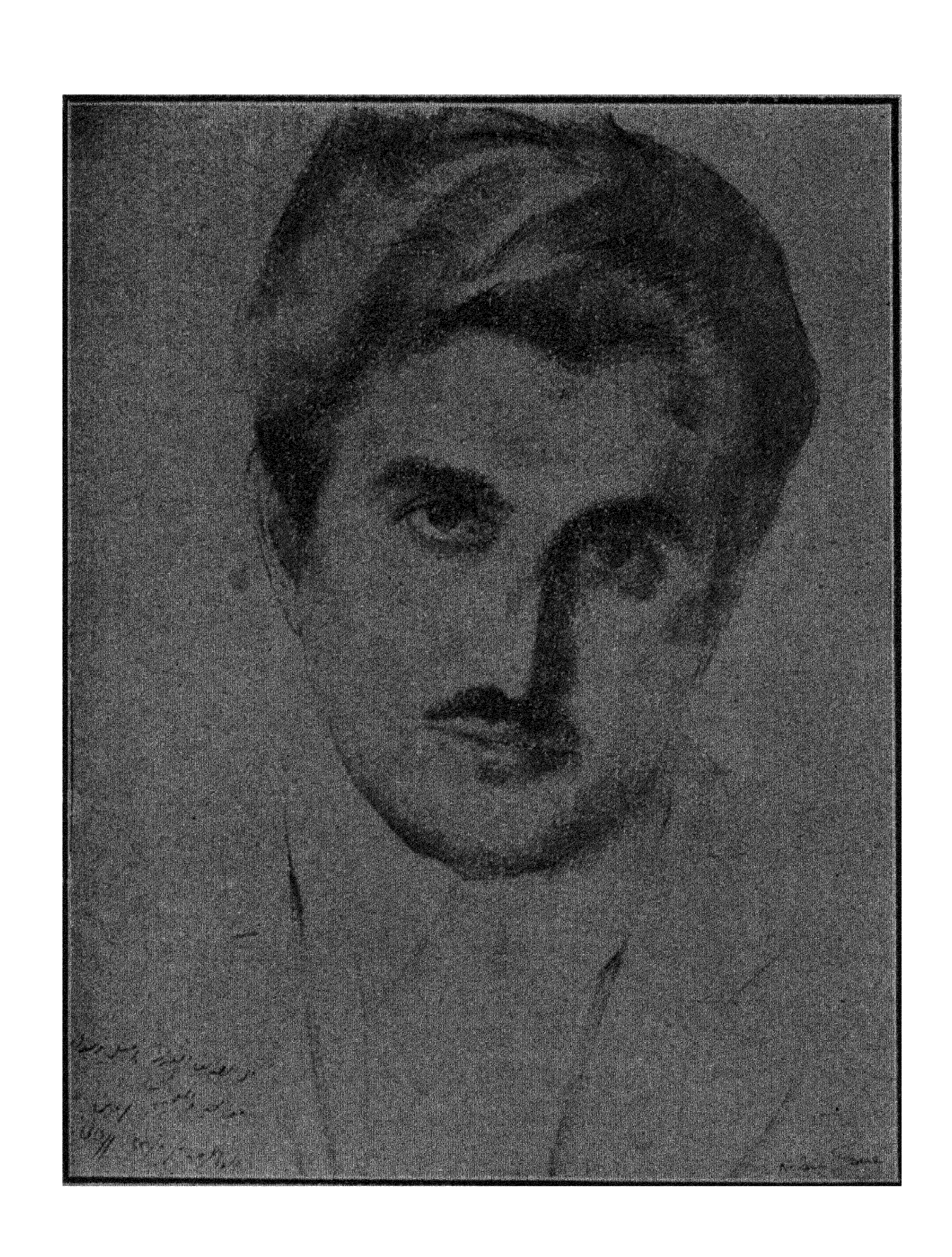
من رجالات الأدب العربى وفحول القرون الأول من قد سرى الى أذهانهم شىء من هذه الأساليب وقلما استوطنوا الجزيرة الاندلسية إلا أنهم أدخلوه على الأدب العربي مع مراعاة مقومات اللغة التى ينتمون اليها ويحافظون على مشخصات آدابها .

وقصارى القول أننا نغبط أنفسنا بنشر هذه الآثار التى نرى فيها نفعاً كبيراً لجمهور أهل الأدب ، فثقتنا بالقراء الكرام وحبهم للاطلاع على نافع الموضوعات وحسن مؤازرتهم لنا باقبالهم على مطبوعاتنا حبب إلينا إجهاد النفس فى هذا العام بطبع عدد غير قليل من الكتب الاجتماعية والسياسة والأدبية والتاريخية .

وإنا نختم مجهودنا بهذا السفر النافع لمن يطلع عليه وينظر فى صفحاته بامعان ثم ندع اليراع فى هذا العام طلباً لراحة الجسم وترويح الفكر فان لبدنك عليك حقاً والسلام

القاهرة فى مايو سنة ١٩٢٢ توفيق الرافعى


أمين الريحاني



الحرية وحدها لا توحدنا

إني ممن يقولون بالطريقة البطيئة الثابتة فى اصلاح الأمم والناس، انى ممن يرتأون ان لاخلاص للشعوب من الجهل والجمود والخمول إلا بالتهذيب والتربية، وما الثورة عندى سوى أمثولة صغيرة فى تهذيب النفس وتثقيف الاخلاق. لاننا إذا تعلمنا أن نثور على المستبدين والظالمين من أسيادنا نتعلم أن نثور حتى على أنفسنا متى كنا من هؤلاء الظالمين والمستبدين، وهذا لعمرى أهم من ذاك. ولكننا لانحسن نحن السوريين لا هذا ولا ذاك: نحن قوم تعددت فى بلادنا المدارس الاجنبية وكثر فينا التقليد والادعاء. كنا بالامس فى مقدمة الشعوب بالرضوخ للضيم والاستسلام للهوان وصرنا اليوم فى مقدمة طائفة من الناس لايحركون فى سبيل الامة سوى القصبة واللسان

ومتى كثر فى الامة المرشدون والناصحون المتربعون بدست السيادة بشر تلك الامة بالهلاك، بدل أن تنصحنى

ساعدنى ، بدل أن ترشدنى سر أمامى ، إذ ما الفرق ياترى بين منافق يناهض حا كما مستبداً واص يندد باللصوص والقتلة ؟ ما الفرق ياترى بين متعصب يقول ما أجملكِ وما أسماكِ أيتها الحرية وبين شيطان يتغنى بمدح الملائكة ؟ ان الاثنين عندى سواء

على اننى أجد بوناً شاسعاً بين عالم لا يعلم ان العلم انما وجد لنفع الناس لا لاثارة الفتن فى الناس ، ورجل عاش جاهلا ومات جاهلا وكان من آل الفضل فى الناس ، وإنى والله لافضل هذا الجاهل الصادق على ذاك العالم المنافق ، إنى لاوثر النفس الصافية الساذجة على نفس متفقهة لا تعرف من سبل الحياة إلا تلك المرحلة المظلمة ولا من أمانى الحياة الا تلك التى يحبل بها دود الارض وتتغذى من سم الافاعى

أجل يا أخى أن حمَّالا صالحاً أو إسكافاً حراً صادقاً خير من الامراء والرؤساء والعلماء الذين لا يعرفون من الحق والعدل ومن الخير والاحسان ومن الاخلاص والفضل إلا اسماءها

إن حاجتنا إلى التهذيب اليوم لاشد منها إلى السكك الحديدية والتلفونات ، إن حاجتنا إلي العلم الصحيح الذى يهذب الانفس ويرقي العقول ويثقف الاخلاق لاشد منها إلى العلوم اللغوية والفقهية واللاهوتية والخنفشارية ، والتهذيب الصحيح ينبغى أن يعم عناصر الامة باسرها على السواء ليأتى بفائدة تذكر للامة ، وعندى أن أشد الويل والبلاء إنما هو فى بيت يعيش تحت سقفه الجاهل والعالم معاً ان وطننا بهذا البيت أيها الاخوان ، وعناصر الامة فيه كافراد تنافرت أذواقهم وأخلاقهم وتعددت صبغاتهم القومية والدينية وتباينت فيهم درجات المدارك والعلوم . فاذا ارتقى عنصر من عناصر الامة دون سواه يلتجىء غالباً إلى المهاجرة إذا ظلت العناصر المنحطة واقفة فى طريق ترقيه كالسد فى وجه المياه . أما الآية « ورب فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة » فالتاريخ لا يشهد على صحتها إلا مرة فى الالف . لان الطبيعة لاتسمح أن تكون المعجزات فيها مبتذلة ، والغالب المبتذل هو أن الاكثرية إن كانت فى

المجالس النيابية أو فى الطبيعة تتغلب على الاقلية

على حكومتنا الدستورية إذاً أن تنتبه إلى هذا الامر الخطير ان كانت ترجو ان ترتقي الامة وتحيا ، على حكومتنا أن تباشر تأسيس المدارس الوطنية العمومية الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية ، وإن كانت لا تباشر قريباً فلا ترجُ يا أخا الحماسة كبير خير من هذا الانقلاب ومن هذا الدستور ومن هذا المجلس النيابى .

أظنك تعلم أيها القارىء العزيز أن لا غاية لى من الكتابة والخطابة والتأليف سوى نشر المبادىء الحرة والتعاليم السديدة فى الامة ، وأن من تجرد عن المآرب السياسية وعن الاغراض الشخصية المادية يرسل كلمته فى الناس دون أن يراعى خاطر أحد من الناس . منذ خمس سنوات عدت إلى وطنى من العالم الجديد وحتى الآن ماعرفت من الرؤساء المدنيين والدينيين إلا من أحب أن يعرفنى أو من جمعتنى به التقادير . قضيت هذه المدة كلها بعيداً عن الرئاسة والسياسة فبان لى أن فى طاقة الانسان أن يعيش سعيداً

دون أن يتزلف من السياسيين والامراء أو عمال الحكومة والرؤساء ، نعم عشت محروماً هذا الشرف العظيم فكانت همومي الادبية ومتاعبِ السياسية أقل من هموم سواي من الادباء .

عسى أن يعذر القراء منى هذه الكلمة الشخصية ، فما قلتها إلا لابنى عليها قاعدة عمومية هى جديرة باعتبار كل من زاول صناعة الكتابة وأحب أن ينفع الناس بعلمه وأدبه : ان التقرب من العظام وبالاخص أصحاب السيادة منهم يفقد الكاتب مزية الحرية والاستقلال ، هذه هى القاعدة العمومية التى قلت من أجلها كلمتى الشخصية تكلمت عن نفسى وما كنت لافعل ذلك فى غير هذه الاحوال لأؤكد لكم أيها الاحوان ان الآراء التى أبديها والمبادىء التى أنادى بها انما هى ثمرة علم لا يعرف التفريق والتحزب ولا يفرق بين الجنسيات والاديان .

أحب أن أردد بعد هذا التمهيد كلمتى السابقة عن المدارس الوطنية وأردفها بكلمة ليست بأقل منها أهمية

وهي « صيحة في واد أن ذهبت اليوم ، مع الريح تذهب غداً بالأَوتاد » أن الأمة العثمانية لاتصير حقاً أمة واحدة متحدة راقية إلا إذا تأسست في البلاد المدارس الوطنية العثمانية المجانية الاجبارية وتلقن فيها العلوم أبناء المسلمين وأبناء الدهريين وأبناء المسيحيين وأبناء اليهود معاً بقي عليّ أن أقول كلمتي الاخرى ، إننا لانصير أمة راقية حرة بكل معنى الكلمتين إلا متى صار أدباء المسيحيين وأدباء المسلمين يتباحثون في أي موضوع كان دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً دون أن يثير ذلك في شعب الملتين غبار الجهل وسموم التعصب بل إذا كان لايحق للمسلم أن ينتقد المسيحيين في شؤونهم العمومية والاجتماعية ولا للمسيحي أن ينتقد المسلمين فلسنا والله بأمة واحدة وليس وطننا بذاك الوطن المجيد الجامع الذي يعبد في هيكله كل أبنائه على اختلاف المذاهب والعناصر والجنسيات ، بل إذا كنا لا نتجرد عن صبغاتنا الدينيه في شؤوننا الوطنية والاجتماعية فحريتنا

أيها الناس كلمة مقولة ، وأخاؤنا لفظة غير معقولة ، والمساواة عندنا قاعدة باطلة مرذولة

نعم ياسيدى ، إذا كان اخواننا المسلمون لا يساعدوننا فى نشر التعاليم الحرة فى الامة ، إذا كانوا لا يؤيدون قولا وفعلا آراء آباء الحرية والدستور ، إذا كانوا لا يرددون صدى أحرار المغرب وعلمائه ومن ينحو اليوم فى الشرق نحوهم من الاحرار الاصفياء والعلماء فعبثاً يحاول أبطال الدستور والحرية تجديد حياة الامة والمسلمون العنصر الاساسى فى الامة ، وأما انتصار الجيش فلا مجد عظيم فيه إن لم يتبعه انتصار فى العلم والتهذيب ، لان الجيش وإن دمر معاقل الحكومة الاستبدادية فنصره لا يزيل الجهل الذى أسست عليه تلك الحكومة ، وما زال الجهل سائداً فى الامة ، سيان عندى ان كانت الحكومة فردية استبدادية أو حرة نيابية ، إن لم تباشر الحكومة فى تدمير حصون الجهل اذاً يعود الجهل فيدمر حصون الحكومة ، ولا يتم لها ذلك إلا فى تأسيس المدارس العمومية الوطنية مجردة عن

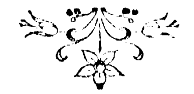
كل صبغة دينية حيث أولاد المسلمين والمسيحيين واليهود والدهريين يتلقنون كلهم العلوم على أستاذ مدني واحد وتحت سقف واحد ومن كتاب واحد وعلى طريقة وطنية واحدة وما هذه ببدعة أنادي بها ، فان مكتب الصناعة في هذه المدينة أسس على هذه الطريقة الوطنية وحبذا لو أحيته اليوم الحكومة فيكون مثالا للمدارس العثمانية العمومية الاجبارية ، وعبثاً نحاول توحيد العناصر المتعددة في الأمة إذا كان التعليم لا يوحد على هذه الطريقة الوطنية الجامعة الحرة

جلست مرة في قهوة من قهاوي البحر أتفرج على الناس يسبحون ، تأملتهم في تلك الحالة الطبيعية وقد تجردوا عما يميز البعض منهم عن البعض وقلت في نفسي — أين المسلم الآن وأين اليهودي وأين الكافر وأين المسيحي ، رأيتهم يسبحون كلهم في بحر واحد تحت سماء واحدة وهم لا يستنكفون من أمواج تلعب حول قلوبهم كأنها قلب

واحد وتغسل أجسامهم كأنها كلها جسم واحد ، فقلت فى نفسى متى ياترى تصير عقولنا مرنة نشيطة قوية كأجسامنا متى تصير أنفسنا كأمواج هذا البحر فلا تخضع إلا لناموس واحد هو ناموس الله ، أو فى الاقل متى تصير متساهلة كأبداننا فتسبح فى بحر الآداب الواحد وتحت سماء العلوم الواحدة دون تنافر ودون شقاق !

نظرت الى البحر وأنا جالس فى تلك القهوة فرأيت هناك المدرعات الحربيـة الاوربيـة ومنها المدرعتان الافرنسيتان « لاڤريته » و « فكتور هوغو » فكرهت الاقامة فى بلاد لم تزل تحتاج فيها الى مثل هذه المظاهرات الكاذبة ، وهل كنا نشاهد المدرعات الاوروبية بصفة رسمية فى بحرنا لو تأسست عندنا المدارس العمومية الوطنية منذ ثلاثين سنة هل كانت تلطخ المذابح تاريخنا فتلحق بنا وبوطننا العار والشنار لو وُحّد منذ ثلاثين سنة التعليم فنمت فى قلوب العثمانيين عاطفة وطنية شاملة وانتشر روح التساهل الدينى فى الامة ؟

لا يا إخوتي ، أنا لا أحب أن أرى هذه المدرعات على شطوط بلادنا ، أنا لا أحب أن يلتجئ أحد عناصر الامة الى دولة أوروبية ، أنا لا أحب أن أرى « فكتور هوغو » فى بحر بيروت بل أحب أن أشاهد روح فكتور هوغو متجلية فى أرواح أبناء بيروت ، لا أحب أن أرى «الحقيقة» على شواطئ سوريا بل أحب أن أراها فى قلوب أبناء سوريا أحب أن تحمينا المبادئ السديدة لا المدافع والمدرعات ، أحب أن يحمينا العلم الخالص من الغش والتعصب المجرد من كل مصلحة جنسية أودينية ، أحب أن يحمينا الاخاء العثمانى والجند العثمانى والعلم العثمانى



الكنيسة والجامع [1]

لم أر بين سائر أماكن العبادة التي أعرفها (وقد حملت نفسي المنسحقة وركبتي التعبتين الى هياكل عديدة) أفضل من الجامع — وما أدراك ما الجامع ؟ هو المكان الذي يؤثر عليّ بديموقراطيته أكثر من سواه لما فيه من شواعرها المتنوعة فليس في الجامع ما يداهن الاغنياء أو يكسر قلوب الفقراء أو يرد ثقيلي الاحمال أو يغفل الورعين وليست بشاشة الجامع بمقاعده المزدوجة ولا رغبة الناس فيه لصدقاته . والخدمة التي تقام فيه نهار الجمعة مأخوذة من القرآن ولهذا لا تحرف ولا تبدل بل هي دائماً لحن من البلاغة تعشقه الاسماع فيحدث خشوعاً في القلوب لدى اتجاه الافكار نحو العلاء

---

(١) نقلا عن جريدة السائح الاميركية

الجامع كبير يسع عادة جماعة الخطباء حتى والعابدين النوام ويبقى بعد ذلك فراغ لا يحد . فالمنبر لا يكون أبداً قريباً من الزوايا الساحرة الشكل التى تظل جماعة المسلمين ونفوسهم وهم على اختلاف طبقاتهم يجتمعون للصلاة تحت سقف واحد فتجد بينهم درويشاً متمتعاً وشحاذاً أعمى وحمالا منهوك القوى واعرابياً عليه غبار البرية البعيدة وكلهم يؤمون الجامع بتمام ورع وخشوع طلباً للراحة بعد العناء أو لاغماض عيونهم لغفوة قصيرة فبعضهم يسجدون أمام المحراب وآخرون يتمددون على الرخام البارد تحت الاروقة حين يكون شيخ جليل أو أمير عريق فى النسب راكعاً على سجادة عجمية ثمينة يخر ساجداً ثم ينهض قائماً فى صلاته

هنا درويش يتمتم قائلا بسم الله الرحمن الرحيم ويعد خرزات سبحته الى أن تصل نفسه درجة الغيبوبة

وهناك فقير يتثاءب متبعاً تثاءبه بقوله . يا الله يا كريم ويخر مكباً على وجهه وهناك بدوى ممدد تحت الرواق كأنه جثة هامدة وليس من ملحد أو جاهل يتعدى على أحد

المصلين أو يعكر عليهم .

الجامع ميناء يرتاح اليه الشحاذ والامير وهيكل يضم المؤمنين وناد يقبل أولاد الله على السواء . هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند اليـه رأسه فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التى تعلوه وما يتخلل سكينة ذلك المكان الرهيب الا كلمات — ياألله . يا كريم . التى تدفعهاالصدور وقتاًفاخر

ولو أن الجامع قائم فى سوق النحاسين لندر وصول صوت اليه من الخارج يؤذى رهبة المكان وسكينته وان النفس فيه لتخشع من هذا السكون فتدعو الجسدويسبح العقل فى العلويات فينبه النفس بلا صنوج ولا أجراس بلا آلة موسيقية ولا جوق مغنين . بلا رسوم ولا تماثيل ولكن باضواء الايمان الدائمةالتى لا تطفأ تندفع النفس لتجد سبيلا لها من خلال السكون الفائق الوصف والرهبةالتى لا تحد . إلى العزة الالهية . إلى الاله الواحد . الى الله .

دخلت ذات يوم جامعاً فى احدى القرى لاستريح وقد خلعت حذائى عند الباب متأملا بهذا التقليد الحكيم لان

لذلك دواعى روحية وحسية فانه إذا كان من الدناسة أن تدخل بيت الله وحذاءك فى قدميك فكم بالحرى اذا لطخت سجاد الجامع الثمين باوحال الطريق وغبارها ؟ ناهيك انى خلعت حذائى امتثالا للعادة ولانه كان مضيفاً على قدمىّ أوحال وأخال كثيرين يرتاحون الى هذا التقليد ويجدون به فرحاً كما شعرت

ولم يكن يدخل الجامع سوى مصليين . رجل وقور طاعن فى السن فى إحدى الزوايا وشحاذ قريب من العراء جامد فى الزاوية الاخرى أما أنا فقد جلست على حصير تحت رواق مسنداً ظهرى إلى عامود ممدداً ساقي وكنت إذ ذاك كأنى فى منزلى . أن الراحة والاسترخاء من أصول التعبد الحقيقى وهما مما تجد فى الجامع فى كل ساعة من ساعات النهار وفى كل ساعة من ساعات الليل ولقد صليت كما أحببت وخرجت مع رفيقى فى الصلاة وأخوى بتسبيح الله . أما الشحاذ فكان حمالا وقد ترك حمله عند الباب وإذ تعذر عليه رفعه أسرع الشيخ المهاب لمعونته مشمراً كميه الحريرين

عن ساعديه مبتدئاً بقوله « بسم الله » . وانحنى الحمال تحت حمله الثقيل وقد تشنجت رقبته بالحبل المشدود حول رأسه ثم خطا متناقلا ولكن خطوات ثابتة بقوة الله . والتفت الشيخ الىّ وقال لى مشتبهاً : : أأنت مسلم ؟ فاجبته وأنا أشد حذائى . ولكنى أعبد الله وأكرم النبى . عندئذ دعانى لمناولة الغذاء على مائدته فان الغرباء الذين يلتقون فى الجامع يصبحون اخواناً .

ذكرنى هذا بزورتى لمدينة نيويورك محجة أميركا حيث ذهبت للصلاة فى كنيسة الاغنياء وهى بناية أنيقة صغيرة خشبية يدل ظاهرها على أنهـا هيكل للعبادة المسيحية وتاريخها يرجع إلى جيل إذ ركبت تركيباً لابناء أبعد أن أتى بأخشابها من انجلترا وبراغيها الاول أيضاً الاأن نوافذها ذات الزجاج الملون المشوش الوضع الخالية ممـا يستدعى النظر أو ما ينبه المخيلة جديدة وصحيحة ولكنها سخيفة مطلية بطلاء يقربهـا من شكل العاديات أو اسطورات التاريخ القديم وأخالها مصنوعة فى أميركا . أما أثمانها فتكال

بالذهب كـكل شيء تافه في هذه البلاد العجيبة وقد لاحت لى نافذة منها تثمن بألف ريال مهداة إلى الـكنيسه من مدام « مثرية » وأخرى أثمن منها من المستر « غنى » . أو ليس من الغضاضة أن نذكر أسماء حقيقية فى ميدان سخاء كهذا ؟ انى لأعجب كيف أن أولئك المسئولين عن تشويه حيطان الـكنيسة الخشبية لم يتستروا استحياء ، أقول « تشويه » عن قصد وروية فانى لا أطيق رؤية شبابيك ملونه الزجاجات على حائط خشبي رقيق عليه شارة هندسية خارجية تشوه جماله وتمنع انعكاس نور الشمس عليه

إلا ان الاحسان لا يعيش فى الظل بل ينفخ ببوقه على السطوح فى رائعة النهار فيها ، أيها البوق النحاسى انى لم أسمع صدى رنانك فى تلك الجوامع المملوءة هواء نقياً فى ذلك الشرق الهادئ

ومما يستحق الملاحظة أيضاً تلك المقاعد الـكنائسية المربعة الزوايا التى تستطيع أن تضع مكانها عدة كراسى بين ذات مساند وهزازة وهى مركبة بطريقة تجعل أربابهـا

يجلسون وجها لوجه كأنهم جالسون فى بهو . أولئك هم أغنياء أميركا الذين يتربعون فى أبهاتهم الكنائسية ، ولماذا ياترى يجزأ مكان العبادة إلى مقاطعات ؟ ولم لا تكون الكنيسة كالجامع الفسيح المطلوق للهواء النقى لا ضرائب عليه ، تؤمه وتبقى ما تشاء من الوقت حينما تشاء ؟

إن المقاعد الكنائسية تسبب صلاة طويلة وضريبة مرسومة وضغطاً على حرية الفردولقد ترغب فى أن تذهب الى الكنيسة لقضاء خمس دقائق لتنبه روحاني فتقضى خمس ساعات اذ تحصر فى المقعدوغالباً اما تعكر على الآخرين أو يعكر عليك الآخرون ما يجول فى مخيلتك .

ولقد علمت أن مقاعد كنيسة نيويورك لا تباع ولا تؤجر ولا تعرض للمصلين ولكنها تقتني اقتناء فكأنها ملك لصاحب أوعرش لرب يتحول بالارث من أب الى ابنه فلا يستطيع الغريب أن يدخل بيت الله للصلاة إلا إذا أراد أن يقف عند الباب بفارغ صبره وان حصوله على

خلاص لنفسه لاسهل من حصوله على مقعد ليريح ركبتيه من عناء الوقوف

أما أنا فقد جلست على مقعد مضيفى وأخال مضيفي حصل عليه بالقوة لان جلدة كتاب الترانيم تحمل اسما غير اسمه وهو اسم إحدى العائلات العريقة المتسلسلة من عائلات انكلترا القديمة وقد طرأت على هذا المقعد تقلبات عديدة بتنقله من يد صاحب الى آخر حتى لم يبق من فراغ قليل على جلدة كتاب الترانيم لوضع اسم جديد

يقاسى الاغنياء قليلا من اجحاف يسببه غناهم . فعنهم قال مؤسس الديانة المسيحية نفسه أشياء مؤلمة وقد حرم عليهم دخول السماء بمثل ضربه فوا الحالة هذه لا يجب أن يعدموا الحق بان يجعلوا لانفسهم سماوات أخرى على الارض فى كنيسة صغيرة حيث يستطيعون أن يناجوا ربهم دون مقاوم أو معكر . ها هنا أولئك الاغنياء المساكين يحبسون أنفسهم ردحاً قصيراً ولا حق لاحد من سائر سكان الغرباء أن يتطفل عليهم بدقائقهم المكرسة

للعبـادة فهم يستوون جالسين فى متكآتهم برزانة وتأنق يرنمون النشيد المائة والسادس والسبعين أو المزمور الواحد والخمسين خاشعين يستوعبون الايمان بكل مسامعهم وشاعرين بسلام داخلهم وسلام مع العالم ومع الله .

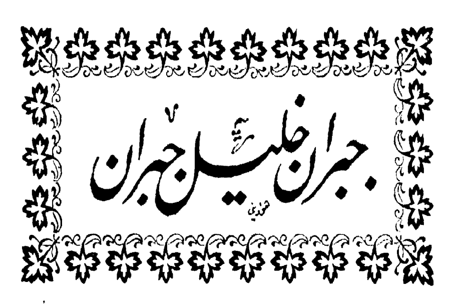
وهذه حال الواعظ الذى لا يلقى عليهم من المنبر شيئاً من أمثال الناصرى — عن الغنى والعازر — أو عن الجمل وثقب الابرة — أن هذا المحترم يراعي شعوريته وأميالهم

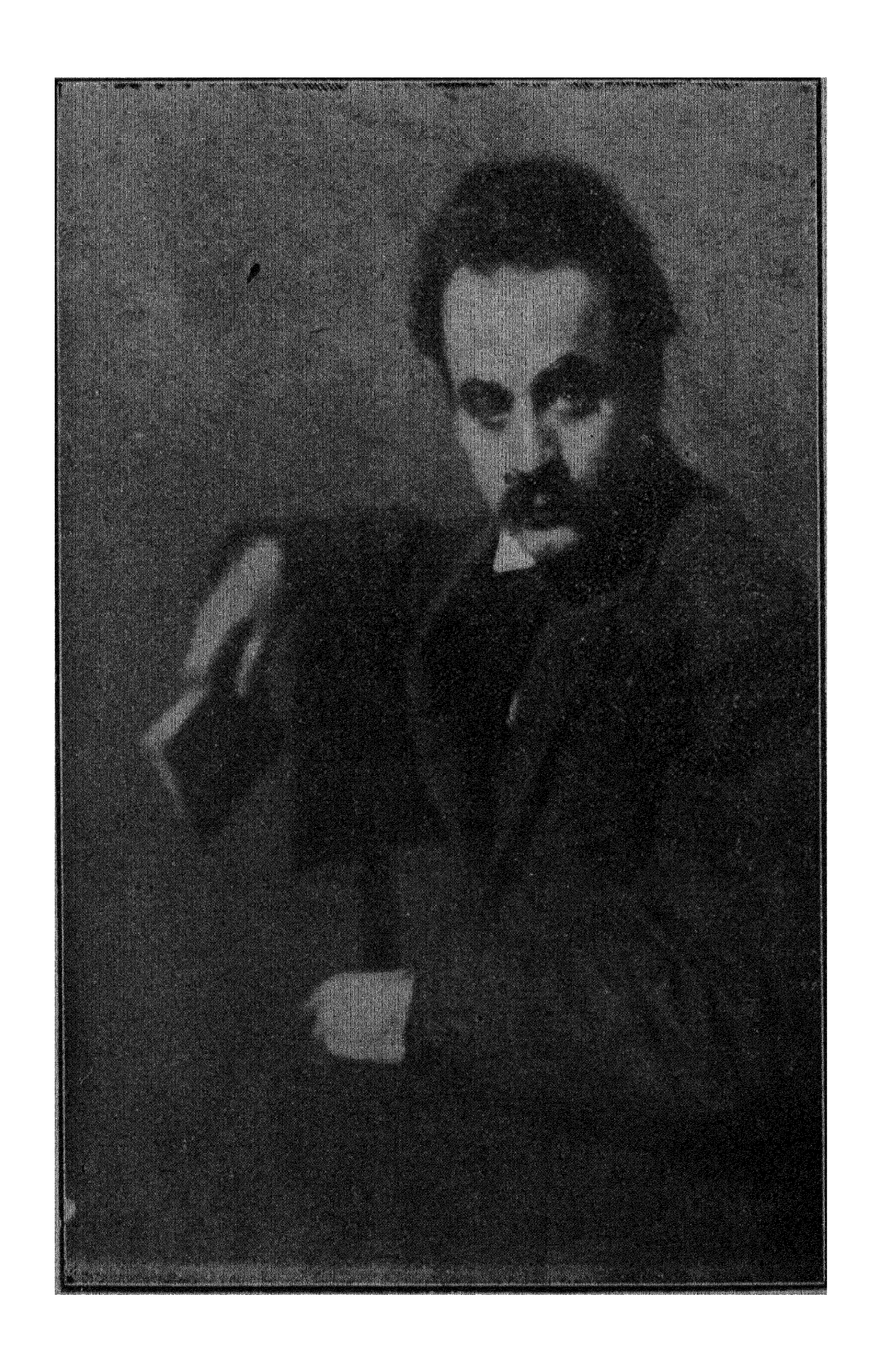
ليغفر لى الله ما ذكرته هنا فقد أتيت الكنيسة لاصلى لا لاغالط . وأما أولئك الذين قد يكونون المسببين لى هذا التغيير العقلى السيء من قريب وبعيد وحاضر أو غائب فانا أبتهل الى الله أن يغفر لهم ويرحمهم .

انتهت الصلاة ولكن القسم الجوهرى منها لم ينته بل سيقام فى الزقاق الضيق أمام الكنيسة حيث شرذمة من البوليس يهتمون بحركة العربات الذاهبة والآتية حينذاك يتقدم قطار سيارات متعددة الالوان والاشكال متألقة يحف بها الحشم وعلى دفتها سائقون بهيئاتهم المتشامخة وتظهر

العربات المتلألئة تجرها الجياد المطهمات فيثب منها الغلمان المرتدون أثوابهم الخاصة ليفتحوا أو يقفلوا أبواب العربات

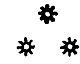
غوغاء غرور ... ضجيج تصلف ... معرض مدهش لاظها رأبهة ونفخة فتعال معي يا أخي المسيحي — تعال معي إلى الجامع


جبران خليل جبران



وعظتني نفسي

وعظتني نفسي فعلمتني حب ما يمقته الناس ومصافاة من يضاغنونه وأبانت لى ان الحب ليس بميزة فى المحب بل فى المحبوب ، وقبل ان تعظني نفسي كان الحب بى خيطاً دقيقاً مشدوداً بين وتدين متقاربين ، أما الآن فقد تحول الى هالة أولها آخرها وآخرها أولها تحيط بكل كائن وتتوسع ببطء لتضم كل ما سيكون



وعظتني نفسي فعلمتني ان أرى الجمال المحجوب بالشكل واللون والبشرة ، وان أحدق متبصراً بما يعده الناس شناعة حتى يبدو لى حسناً . وقبل ان تعظني نفسي كنت أرى الجمال شعلات مرتعشة بين أعمدة من الدخان ، أما

الآن فقد تبـدد الدخان واضمحل فلم أعد أرى سوى ما يشتعل

وعظتني نفسي فعلمتني الاصغاء الى الاصوات التي لا تولدها الأَلسنة ولا تضج بها الحناجر . وقبل أن تعظني نفسي كنت كليل المسامع مريضها ، لا أعي سوى الجلبة والصياح أما الآن فقد صرت أتوجس بالسكينة فاسمع أجواقها منشدة أغاني الدهور ، مرتلة تسابيح الفضاء ، معلنة أسرار الغيب

*
* *

وعظتني نفسي فعلمتني أن أشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا ترفع بالايدي ولا تلمس بالشفاه. وقبل أن تعظني نفسي كان عطشي شرارة ضئيلة في رابية من رماد أخمدها بغبة من الغدير أو برشفة من جرن المعصرة. أما الآن فقد صار شوقي كأسي ، وغلتي شرابي ، ووحدتي

نشوتى ، وأنا لا ولن أرتوى . ولكن فى هذه الحرقة التى لا تطفى مسرة لا تزول

*
* *

وعظتنى نفسى فعلمتنى لمس ما لم يتجسد ولم يتجمد ولم يتبلور ، وأفهمتنى أن المحسوس نصف المعقول ، وان ما نقبض عليه بعض ما نرغب فيه . وقبل ان تعظنى نفسى كنت أكتفى بالحار إن كنت بارداً ، وبالبارد إن كنت حاراً ، وباحدهما ان كنت فاتراً . أما الآن فقد انتثرت ملامسى المتكمشة وانقلبت ضباباً دقيقاً يخترق كل ما ظهر من الوجود ليمتزج بما خفى منه

*
* *

وعظتنى نفسى فعلمتنى استنشاق ما لا تبثه الرياحين ولا تنشره المجامر . وقبل ان تعظنى نفسى كنت ان اشتهيت عطراً طلبته من البساتين أو من القوارير والمباخر . أما الآن فقد صرت أشم ما لا يحرق ولا يهرق ، واملاء صدرى من أنفاس زكية لم تمر بجنة من جنات هذا العالم

ولم تحملها نسمة من نسمات هذا الفضاء

وعظتني نفسي فعلمتني أن أقول « لبيك » عندما يناديني المجهول والخطير. وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أنهض إلا لصوت مناد عرفته ، ولا أسير إلا على سبل خبرتها فاستهونتها . أما الآن فقد أصبح المعلوم مطية أركبها نحو المجهول ، والسبل سلماً أتسلق درجاته لأبلغ الخطر

*
* *

وعظتني نفسي فعلمتني أن لا أقيس الزمن بقولي « كان بالامس وسيكون غداً » وقبل ان تعظني نفسي كنت أتوهم الماضي عهداً لا يرد والآتي عصرا ان أصل اليه . أما الآن فقد عرفت أن في الهنية الحاضرة كل الزمن بكل ما في الزمن مما يرجي وينجز ويحقق

وعظتني نفسي فعلمتني أن لا أحد المكان بقولي « هنا وهنالك » وقبل ان تعظني نفسي كنت إذا ما صرت في موضع في الارض ظننتني بعيداً عن كل موضع آخر . أما الآن فقد علمت أن مكاناً أحل فيه هو كل مكان .

وان فسحة أشغلها هي كل المسافات

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني أن أسهر وسكان الحي راقدون ، وأن أنام وهم منتبهون . وقبل أن تعظني نفسي كنت لا أرى أحلامهم في هجعتي ولا يرصدون أحلامهم في غفلتهم أما الآن فلا أسبح مرفرفاً في منامي إلا وهم يرقبونني ولا يطيرون في أحلامهم إلا وفرحت بانعتاقهم

* * *

وعظتني نفسي فعلمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمة . وقبل ان تعظني نفسي كنت أظل مرتاباً في قيمة أعمالي وقدرها حتى تبعث اليها الايام بمن يقرظها أو يهجوها أما الآن فقد عرفت ان الاشجار تزهو في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها بالثناء ، وتنثر أوراقها في الخريف وتتعرى في الشتاء ولا تخشى الملامة

* * *

وعظتنى نفسى فعلمتنى واثبتت لى أننى لست بارفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة وقبل أن تعظنى نفسى كنت أحسب الناس رجلين رجلا ضعيفاً أرق له أو أزدرى به ورجلا قوياً أتبعه أو أتمرد عليه . أما الآن فقد علمت أننى كونت فرداً مما كون البشر منه جماعة ، فعناصرى عناصرهم ، وطويتى طويتهم ، ومنازعى منازعهم، ومحجتى محجتهم ؛ فان أذنبوا فانا المذنب ، وان أحسنوا عملا فاخرت بعملهم ، وان نهضوا نهضت وإياهم ، وان تقاعدوا تقاعدت معهم

*
* *

وعظتنى نفسى فعلمتنى وأفهمتنى أن السراج الذى احمله ليس لى ، والاغنية التى أنشدها لم تتكون فى أحشائي ، فانا وان سرت بالنور لست بالنور ، وأنا وان كنت عوداً مشدود الاوتار فلست بالعواد

*
* *

وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني . ولقد وعظتك نفسك وعلمتك . فانت وأنا متشابهان متضارعان ، وما الفرق بيننا سوى أنني أتكلم عما بي وفي كلامي شيء من اللجاجة ، وأنت تكتم ما بك وفي تكتمك شيء من الفضيلة



بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي. فالفضاء لا يسمعك

اسكت فالاثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك.

اسكت فاشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك.

اسكت يا قلبي، اسكت حتى الصباح، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقي الصباح قوياً، من يهوى النور فالنور يهواه.

اسكت يا قلبي، واسمعني متكلما

*
* *

في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور

ورأيت طفلا يلعب بالجماجم وهو يضحك

رأيت جميع هـذه الصور في الحلم ولما استيقظت
ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ولـكنني لم أسمع الشحرور
مغرداً ولا رأيته مرفرفاً
ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والاودية
ساتراً باكفانه البيضاء أجسام الزنابق الهامدة
ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينة الدهور
وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا من يجثو مصلياً
ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك
سوى الريح
في اليقظة رأيت الحزن والاسى فاين ذهبت أفراح
الحلم ومسراته ؟
أنى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه؟
وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيها
وآمالهـا ؟

اصغ يا قلبي واسمعني متكلما

*
* *

كانت نفسى بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها الى أعماق الارض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية

ولقد أزهرت نفسي فى الربيع وأثمرت فى الصيف ولما جاء الخريف جمعت أثمارها فى أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق . فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون فى سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة نظرت فلم أر فى أطباقى سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لى فتناولتها وأكلت فألفيتها مرة كالعلقم ، حامضة كالحصرم. فقلت لنفسى : « ويحى لقد وضعت فى أفواه الناس لعنة ، وفى أجوافهم عداء . فماذا ترى فعلت يانفسى بالحلاوة التى امتصتها عروقك من أحشاء الارض ، وبالاريج الذى تشربته قضبانك من نور الشمس » ؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسى القوية المسنة

اقتلعتها بعروقها من التربة التى نمت فيها وترعرعت

اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف خريف

وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن. وكنت أسهر بجانبها قائلا أن السهر يدنينا من النجوم . وكنت أسقيها بدمى ودموعى قائلا أن في الدم نكهة . وفي الدموع حلاوة

ولما عاد الربيع أزهرت نفسي ثانية

وفي الصيف أثمرت نفسي . ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة باطباق من الذهب . ووضعتها على ملتقى السبل . فمر الناس أفرادا وجماعات ولكن لم يمد أحد يده ليتناول منها

فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت، فوجدتها حلوة كالشهد، لذيذة كالكوثر ، طيبة كالخمر البابلية ، كانفاس الياسمين ، فصرخت قائلا : « ان الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في أجوافهم لان البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء »

ثم عدت وجلست فى ظل نفسى المنفردة فى حقل بعيد عن سبل الزمن

* * *

اسكت يا قلبى حتى الصباح

اسكت ، فالفضاء قد أتخمته رائحة الاشلاء فلن يتشرب أنفاسك

اصغ يا قلبي واسمعنى متكلما

كانت بالامس فكرتى سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتنتقل مع الاهواء من شاطىء إلى شاطىء

ولقد كانت سفينة فكرتى خالية الا من سبعة أكواب طافحة مختلفة بالوان مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة فكرتى الفارغة الى ميناء البلد الذي ولدت فيه

ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد

السماء، وحمراء كذوب الشقيق، وارسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة، ولما انهيت من عملي وقد ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين البحر والسماء، دخلت ميناء بلدى فخرج الناس لملاقاتى بالتهليل والتعظيم وأدخلونى المدينة ضاربين الدفوف، نافخين الزمور

فعلوا ذلك لان خارج سفينتى كان مزخرفاً بهجا
ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتى
ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار
ولم يدر أحد أننى عدت بها فارغة الى الميناء

عند ذلك قلت فى سرى: لقد ضللت الناس. وبسبعة أكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم »

*
* *

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية
سرت الى جزر الشرق فجمعت منها المر واللبان
والند والصندل وأدخلتها الى سفينتى

وإلى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشى والبرفير

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف المشرفية وسائر أنواع الاسلحة

ملأت سفينة فكرتى بنفائس الارض وغرائبها، وعدت إلى ميناء بلدى قائلا « سوف يمجدنى قومى . ولكن عن جدارة وسيدخلونى المدينة منشدين مزمرين ، ولكن عن استحقاق »

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاتي ، ودخلت شوارع بلدى فلم يلتفت إلى أحد

ووقفت فى ساحتها معلنا للناس ما جلبت لهم من ثمار الارض وطرائفها فكانوا ينظرون إلى والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عنى

فعدت إلى الميناء كئيبا مستغربا ، ولكننى ما لمحت سفينتى حتى فطنت لامر كنت مشغولا عنه بمنازع أسفارى

ورغائبها . فهتفت قائلا ، إن أمواج البحر قد محت الطلاء من جوانب سفينتي فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الارياح والانواء وحرارة الشمس الرسوم عن شراعها فظهرت كأثواب رمادية بالية »

لقد جمعت طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على وجه المـاء وعدت إلى قومى فنبذوني لان عيونهم لاترى سوى المظاهر الخارجية

في تلك الساعة تركت سفينة فـكرتى وذهبت إلى مدينة الاموات وجلست بين القبور المـكلسة مفكراً باسرارها

☼
☼ ☼

اسكت يا قلبي حتى الصباح ، اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس أعماقك وكهوف الوادى لن ترجع بصداها رنات أوتارك

اسكت ياقلبي حتى الصباح فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام.

هوذا موكب الصباح يا قلبي فهل أبقى سكوت الليل في أعماقك أغنية تلاقى بها الصباح ؟

هوذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في أطراف الوادي، فهل أبقى هول الليل في جناحيك صلابة لتطير معها؟

هو ذا الرعيان يسيرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض فهل أبقت لك أشباح الليل عزماً لتسير وراءها إلى المروج الخضراء؟

هوذا الفتيان والصبايا يمشون الهوينا نحو الكروم، فهلا نهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي، قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى، ومخاوف الليل قد اضمحلت مع احلامه السوداء

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً فمن لا يشارك الصبح باغانيه كان من أبناء الظلام

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين أطرابها وتمايل فرحة بين قامات الاعشاب .

في صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت متنهدة — ما أقل حظي بين الرياحين ، وما أوضع مقامي بين الازهار ، فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة أعيش ملتصقة باديم الارض ولا أستطيع ان ارفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود »

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت — ما أغباك بين الازهار ، فانت في نعمة

تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال مالم تهبه لكثير من الرياحين ، نخلى عنك هذه الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لك واعلمي ان من خفض جناحه يرفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع في النقصان »

فأجابت البنفسجة قائلة

— أنت تعزيني أيتها الوردة ، لانك حاصلة على ما أتمناه وتغمرين حقارتي بالحكم ، لانك عظيمة . وما أمر مواعظ السعداء في قلوب التعساء . وما أقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء ! »

وسمعت الطبيعة مادار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة

— « ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ »

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف

— «أيتها الام العظيمة بجبروتها الهائلة بحنانها ، اضرع اليك بكل ما فى قلبى من التوسل . وما فى روحى من الرجاء أن تجيبى طلبى وتجعليني وردة ولو يوما واحداً »

فقالت الطبيعة — «أنت لاتدرين ما تطلبين ولا تعامين ما وراء الظعمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت قامتك وأبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لاينفع الندم »

فقالت البنفسجة — «حولى كياني البنفسجى الى وردة مديدة القامة ، مروعة الرأس • ومهما يحل بى بعد ذلك يكن صنع رغائبى ومطامعى »

فقالت الطبيعة — «لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك »

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست

عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبـد الفضاء بغيوم سوداء مبطنـة بالاعصار ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبق الا على الرياحـين الصغيرة التي تلتصق بالارض أو تختبيء بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر مالم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباء منثوراً ولم يسلم منها بعـد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة .

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقـة وأشجارها فابتسـمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة

— « الا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيها واعجابا »

وقالت بنفسجة أخرى — « نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء »

وقالت بنفسجة ثالثة — « نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا »

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الرياح وألقتها على الاعشاب المبللة فبانت كقتيل أرداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة — « تأملن وانظرن يابناتي . أنظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة تتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد أمثولة لكن »

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت يتقطع قالت

— « ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والاعصار . لقد كنت بالامس مثلكن أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزا منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهوائها ويجعل كياني محدودا بما فيه السلامة . متناهيا بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني أن أعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه وأذهب كمن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو طبيعتها عن طبيعتي ولكن أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول لهذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام

يعلو عن وجـداني . وما زلت أتمرد على ذاتي وأشوق الى ما ليس لي حتى أنقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفيـة — ان تحولني الى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعـة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق

وسكتت الوردة هنيهـة ثم زادت بلهجـة مفعمة بالفخر والتفوق .

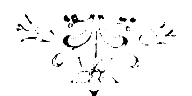
— أي لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت الى الـكون من وراء عيون الورود . وسمعت همس الاثير بأذان الورود . ولمست ثنايا النور باوراق الورود . فهل بينكن من تستطيع أن تدعي شرفي ؟»

ثم لوت عنقها . وبصوت يكاد أن يكون لهاثا قالت

— « أنا أموت الآن • أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه • وهذا هو القصـد من الحياة .

هذا هو الجوهر الـكائن وراء عرضيات الايام والليالى »

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليـلا ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامـة علوية — ابتسامة من حققت الحياة أمانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله .



*

حياة الحب

— الربيع —

هلمي يامحبوبتي نمش بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت في الاودية والمنحدرات. سيري معي لنتتبع آثار أقدام الربيع في الحقل البعيد. تعالِ لنصعد الى أعالي الربى ونتأمل في تموجات اخضرار السهول حولهــا .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر، واستيقظت الـكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح، وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر.

تعالِ لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبيء البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

— الصيف —

هيا بنا الى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة تعالِ قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ أرضنا . هلمي نجني ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي زرعتها المحبة في أعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأَت الحياة اهراء عواطفنا .

هلمي يا رفيقتي نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي .

— الخريف —

لنذهب الى الكرمة يامحبوبي ونعصر العنب ونوعيه في الاجران مثلما توعى النفس حكمة الاجيال ونجمع الاثمار

اليابسة ونستقطر الازهار ونستعيض عن العين بالأثر

ارجع نحو المساكن فقد اصفرت أوراق الاشجار ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عند ما ودعها الصيف . تعالِ فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على أديم التراب .

ارجع . فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها . والطلول خلعت باهى أثوابها ، تعال يامحبوبتى . فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة ،

— الشتاء —

اقتربى ياشريكة حياتي ، اقتربى منى ولا تدعى أنفاس الثلوج تفصل جسمينا ، اجلسى بجانبي امام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية ، حدثيني بما تى الاجيال ، فآذاني قد تعبت من تأوه الارياح وندب العناصر ، اوصدى الابواب والنوافذ ، فرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسى

والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلي تحت أطباق الثلوج يدمى قلبي .. اسقِ السراج زيتاً ، يارفيقة عمري ، فقد أوشك أن ينطفيء ، وضعيه بالقرب منك لارى ما كتبته الليالى على وجهك ... هاتِ جرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر .

اقتربي ! — اقتربي مني يا حبيبة نفسي فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها .. ضمي.. فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة .. ها قد ثقلت أعيننا خمرة السنين .. ارمقيني بعين كحلها النعاس .. عانقيني قبل أن يعانقنا الكرى ... قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا قبلتك .. آه يا حبيبتي ما أعمق بحر النوم . آه ما أبعد الصباح .. في هذا العالم

*

في مدينة الاموات

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشى فى الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد فى أعمال الانسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت فى قلبى الا أفتكر بما صنعه ابن آدم وحولت عينى نحو الحقل كرسى مجد الله فرأيت فى وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست أفكر — أفكر فى كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة فى هذه وفى السكينة السائدة والهدو المستقر فى تلك .

من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب فى تراب تقلب

الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بيناأنا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظرى جمع غفير يسير الهويناء تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحانا محزنة • موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلاف بين أشكال الناس . جنازة غنى قوى . رفات ميت تتبعها الاحياء وهم يبكون ويولولون ويبثون بالهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعانى وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الازهار المنمقة بأيدى المتفننين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفتكر ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والاشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي أطماراً بالية وهي حاملة على منكبيها طفلا رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها زوجة تذرف دموع الاسي وطفل يبكى لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفى مسيره حزن وكآبة.

وصلوا هؤلاء الى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة فى زاوية بعيدة عن الاجداث الرخاميـة ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الاشجار

فالتفت اذ ذاك نحو مدينة الاحياء وقلت في نفسى :

— تلك للاغنياء الاقوياء . ثم نحو مدينة الاموات وقلت :

— هذه للاغنياء الاقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يارب؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلي يقول . . هنالك .

بنات البحر

في أعماق البحر الذى يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك فى الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن بأصوات موسيقية . حديثا سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسى .

قالت واحدة : — « هذا بشرى هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً »

فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقا ولكن الانسان — وهو الذى يدعي بانه من سلالة الالهة — كان فى حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزيا وهذا البشرى هو قتيل الحرب . »

فقالت الثالثة : — « لا أدرى ما هى الحرب ولكنى أعلم ان الانسان بعد ان تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على

البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون اله البحار وغضب من هذا التعدى فلم ير الانسان بدا اذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالاشلاء التى رأيناها بالامس هابطة هى آخر تقدمة من الانسان الى نبتون العظيم»

قالت الرابعة : — «ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه. لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالين لنرى جثة هذا الشاب فربما أفادتنا شيئا عن طائفة البشر» .

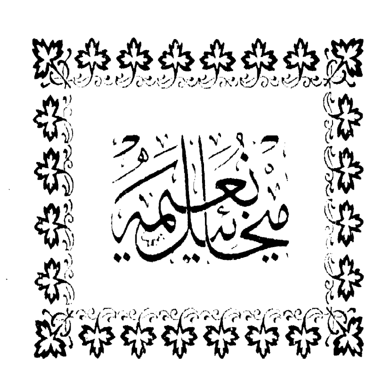
اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن فى جيوب أثوابه فعثرن على رسالة فى الثوب الملاصق قلبه فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

«ياحبيبى . — ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لى مسل غير دموعى ولا معز سوى أملى برجوعك الى من بين مخالب الحرب ولا أقدر بان أفتكر الا بما قلته لى عند الوداع بان عند كل انسان أمانة من الدمع لا بد من ردها يوما . . لا أدرى ياحبيبى ماذا أكتب بل اترك

نفسي تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الالم لذة والاحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعا بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الاطفال ؟ ماهذه الوطنية التي من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ماهذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذي لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ، اذا كان الواجب ينفي السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان ، فسلام على الواجب والوطنية ... لا لا يا حبيبي ، لا تحفل بكلامي بل كن شجاعا ومحبا الوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق . اذا كان الحب لا يرجعك الىّ في هذه الحياة فالحب يضمني اليك في الحياة الآتية »

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ولما بعدن قالت واحدة منهن : —

« ان قلب الانسان أقسى من قلب نبتون »


مجالس تعليمية

الزحافات والعلل

نظرة فى الشعر وأوزانه

دع همومك التجارية ، والسياسية ، والعائلية يا أخى وتأبط جراب صبرك واتبعنى. تسألنى الى أين ؟ — والنفرض الى جهنم ! وليست جهنم خيرا من عالم يصابحنا بالقال والقيل ، ويعاشينا بالقيل والقال ؛ وما قيله الا هبوط أسعار وارتفاع أسعار . وما قاله الا انتصار سياسة واخفاق سياسة فتأبط جراب صبرك واتبعنى . ولا تسل الى أين . قد أسلك بك طريقاً وعراً . وقد أدخل بك أجمة ملتفة الادغال . وقد أريك طرف مرج فسيح. وقد أعود بك من حيث انطلقت كأنك لا رحت ولا جئت. فتمسك بجراب صبرك فالصبر خير سلاح للمؤمنين . ولنمش

هل سمعت فى حياتك يا أخي برجل يدعى أبا عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرى الازدى الفراهيدى ؟ لا ؛ اذن فاعلم وقاك الله ان أبا عبد الرحمن (تغمده الله برحمته

ورضوانه) ولد فى سنة مائة للهجرة وتوفى عن خمس وسبعين عاما قضاها بالبر والتعبد والتقوى ـ ووضع علم العروض

والعروض ـ رعاك الله ـ « علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر العربى وفاسدها وما يطرأ عليها من الزحافات والعلل »

و « الزحافات والعلل » أوبئة تنزل بأوزان الشعر العربى فتحرك ساكنا ، أو تسكن متحركا . وتقضم حرفاً هنا ، ومقطعا هناك . وقد عنى بها الخليل عناية خاصة . فأعطى لكل منها اسما ورتبها فى أبواب وفصول هى أكثر عدا من خطاياى

هذا هو أبو عبد الرحمن ياصاحبى . فلنقدس ذكره . ولنجل مقامه . فلولاه لكنا بلا زحافات وعلل . وكيف تكتمل لنا السعادة بدون زحافات وعلل ؟ ولولاه لما كان لنا علم العروض الذى « يعرف به صحيح أوزان الشعر العربى وفاسدها » وأنى لنا أن نميز بين ما هو شعر وما ليس شعرا ما لم نعرف صحيح الاوزان من فاسدها ؟

لقد مات الخليل يا أخى . ومنذ مات الخليل حتى اليوم ونحن منغمسون فى درس الخبن والخبل . والترفيل والتذييل والنقص والوقص . والقطف والكسف . والخرم والثلم . والقصر والبتر . الى ماهنالك من علل زاحفة وزحافات معتلة . الى أن ملكنا باذن الله ناصية علم العروض وأصبحنا بمنة الخليل نميز بين « صحيح أوزان الشعر العربي وفاسدها »

أما اننا فى جدنا وراء ناصية العروض قد أفلتت من يدنا ناصية الشعر . واننا فى جهدنا وراء التمييز بين صحيح أوزان الشعر وفاسدها قد نسينا الفرق بين ما هو شعر وما ليس شعرا ، فما ذاك بالامر الخطير ! فالمهم المهم أن نعرف اذا ما نظمنا بيتا اننا لم نجز لانفسنا مالم يجزه الخليل واننا لم نهتك حرمة قاعدة . ولم نخل بحرف من ناموس . ولم نتجاوز حد تقليد شريف أو طقس مقدس . فاتكلنا على الله ورحنا ننظم القصائد

ومن حسنات علم العروض يارفيق انه كثير البحور .

ولكل بحر من بحوره قوارب يتعذر عليك ركوبه الا بها ولكل من تلك القوارب مقاذيف لا تدار الا بها ولكل من تلك المقاذيف حلقات وحنيات ومماسك لا يعرفها الا غزير الخبرة وطويل الاناة • لذالك فالملاحة فى هذه البحور تقضى اقتحام الاخطار والمجازفة بالحياة . ولذالك قد حذرنا العاقلون من الاقدام عليها اذ قالوا :

الشعر صعب وطويل سامه ... اذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه ... يريد أن يعربه فيعجمه

غير ان أبناء الضاد ليسوا ممن يهابون المخاطر . ولا ممن يؤثرون الحياة على الشرف . فكلما تراكمت تلك العقبات فى سبيلهم كلما ازدادت عزائمهم مضاء . وكلما عز الحصول على شرف أثيل كلما هانت لديهم الارواح • فما كان منهم الا ان هجموا على تلك البحور فلجموا أمواجها وامتطوها وراحوا بين شواطئها يهزجون • نعم هوى بعضهم الى القاع فطمست آثاره • ولكن أكثرهم طاف جميع البحور وعاد سالما معافى

ومن ميزات الذين يخوضون بحور الشعر يا أخي ويعودون سالمين انهم يكتسبون حنوا خارقا على الانسانية بأسرها ، لا سيما علينا نحن أبناء اليابسة فلا يعودون الينا فارغي اليد (وان عادوا فارغي الرأس والقلب) بل يتبارون الى مشاطرتنا كل ما اكتشفوه وعرفوه بشأن الملاحة فى البحور الشعرية . فيقدمون الينا ذلك لا نتفاً نتفاً بل يجمعونه بين دفتى كتاب يدعونه « ديوانا » ويرفعونه الينا ليرفعونا به اليهم

فالمجد الملاحين يا أخى ـ أولئك الذين يحسنون الملاحة فى بحور الشعر . والذين يرتقون فى سامه فلا تزل بهم قدم اذ لا يعجمون معربة ولا يعربون معجمة ! لتمجد العروض وأبناء العروض !

هل اعتراك يا أخى الملل ؟ فعليك بجراب صبرك . اذ اننا فى مسلك وعر . وان شاء ربك سنقطعه سالمين

تسألنى ما اذا كنت أتهكم أو أعنى ما أقول ؟ لا وتربة الخليل لست متهكما . فلعروض الخليل فضل على كبير

ولاصحابنا الملاحين فضل أكبر . أقول ان لهم فضلاً أكبر لان الخليل يوم جمع ما كان فى زمانه من أوزان الشعر وبوبها وحـددما « يطرأ عليها من الزحافات والعلل » لم يقصد سوى الخير ولم يتوخ الا خدمة لغة عزيزة عليـه . أما الذين جاءوا بعد الخليل فتقيدوا بزحافاته وعلله ألفاً ومائتى سنة فاياهم أسدى جزيل شكرى . لانهم بعباراتهم فى معرفة « صحيح أوزان الشعر وفاسـدها » قد أتقنوا الاوزان وأهملوا الشعر . وباهمالهم الشعر نبهونى اليه . وقد ينبهنا عدم وجود الشيء الى الشيء أسرع مما ينبهنا اليه وجوده .

لنقف يا أخي بتخشع امام شبح من قال

«وشبيه صوت النعى اذاقيـ س بصوت البشير فى كل ناد»

ولنبحث امام ضريح من شرب « على ذكر الحبيب مدامة » فسكر بها « من قبل أن تخلق الـكرم »

ولنجل النار التى كانت تتأجج فى صدر من نظر الاعمى الى أدبه وأسمعت كلماته من به صمم

فهؤلاء وقليل ممن راودت أرواحهم أحلام من عالم أعلى

الجبابرة وان تقيدوا بقيود الخليل . فهم أكبر منه ومن عروضه . فلنمر من امامهم صامتين . ولنتابع السير الى حيث الدواوين الحافلة بصحيح أوزان الشعر، الناطقة بألف لسان بفضل الخليل . المرددة بألف قافية شكر الزحافات والعلل ، الناظرة بألف عين لا الى جمال الحياة بل الى جمال الالفاظ والمقاطع ، المصغية بألف أذن لا الى نبضات القلوب وخطوات الافكار بل الى يد تصفق استحسانا ولسان يثرثر بالمديح . ان هذه الدواوين يا أخى لافصح ما كتب فى الشعر وعنه ، لانها محشوة بما ليس شعرا . لذلك كلما بلاك الله بواحد منها تتوق نفسك الى نقيضه . أى تتوق الى الشعر ولذلك قلت انها أفصح ما كتب فى الشعر وعنه

مهلا يا أخى ولا تكن لجوجا . ولا تسلنى أن أحدد لك الشعر . فالشعر غير محدود . ولا يحيط به ادراكا الا أصحاب دواويننا المكرمون . فقد قام بينهم حديثا جهبذ جمع فى مقالة واحدة ١٧٧ تعريفاً للشعر عن ألسنة كثيرة — من

ابن خلدون الى ميخائيل رستم ! ومن ارسطوطاليس الى جورج ساند — فعليك بديوانه

أما أنا فلا اطلاعي واسع لهذا الحد، ولا صبري طويل بهذا المقدار . فلنعدل عن تحديد الشعر وتعريفه . وذاك لا يمنعنا من أن نتكلم في الشعر . فتعال نتبادل الخواطر والنظرات

هل ضحكت ياأخي في حياتك وهل بكيت ؟ هل ساورت أفكارك شكوك أم سرحت في صدرك أمال ، أم عصرت قلبك خيبة ، أم مزق نفسك ألم ؟ هل طرقت أذنك نغمة فطربت بها روحك ، أم رأت عينك مشهداً فاهتز له كيانك ؟ اذن لا شك تفهمني لو سكبت أمامك دموعي . وكشفت لك صدري . وحدثتك عن آلامي وآمالي . ووصفت لك نغمة أطربتني أو مشهداً هزني . وأنا بدوري أفهمك . وكلانا يفهم الغير

ولو كان لك من سبيل الى ترجمة عواطفك وأفكارك بالصينية أو الهندية أو اليابانية أو الالمانية لفهمك الصيني

والهندي والياباني والالماني كذلك . فما هو السر في ذلك ؟ ما السر في ان روحك وهي في دمشق أوالقاهرة تستطيع أن توصل أناتها وتهاليلها الى روح في أقاصي شمال الارض وجنوبها أو شرقها وغربها ؟

السر ياصاحبي في ان نفسك ونفسي ونفس بطرس وأحمد — كلها تستقي من مورد واحد . وذاك المورد هو الحياة . وان شئت فقل النفس الجامعة أو الله . فالحياة وان تعددت مظاهرها وتنوعت أزياؤها ، هي هي . وجوهرها واحد لا يتغير . غير ان ما نستقيه من هذا المورد يتنوع بمقدار الظمأ الداخلي فينا . فبعضنا اذا ما شرب من المرارة غب غب الجمال . بينما يمتصها الآخر مص العليل للدواء . وبعضنا اذا ما هزته نغمة رفعتـه الى الجو . بينما يسمعها الآخر فينتفض قليلا « كالدوري » ويعود يبحث في الروث عن شعيرة يلتقطها

ان الحياة ياصاحبي تعرض مشاهدها علي وعليـك . لـكنك قد ترى مشهدا لا أراه أنا وان أكن مفتح العينين .

بل قد أنظر واياك الى مشهد واحد فترى فيه أشياء لا أراها وتسمع ما لا أسمعه . هكذا قد أمر بدودة تدب على الارض فأدوسها أو أحول وجهي عنها وأمشي في سبيلي . وتمر بها أنت فتقف مراقبا حركاتها ثم ترفعها بيدك وتدرسها مليا ثم تضعها من يدك وتنطلق وفي رأسك قد تجمهرت أشباح وأمام عينيك قد مشت رسوم، وفي أذنيك قد دوت أصوات . ولا يعتم ان تنتظم تلك الاشباح وتندمج تلك الرسوم وتتألف تلك الاصوات في قصيدة أو مقالة أطالعها أنا فأشعر كأن أشباحها تجمهرت في رأسي ورسومها مشت أمام عيني وأصواتها رنت في أذني . لقد مررت واياك في مثل هذه الحالة بمورد من موارد الحياة. فشربت منه قطرة حيث شربت قطرات وفيّ من الظمأ ما فيك. غير اني ما كنت أشعر بظمئي الى ان سمعتك تصف لي ظمأك وكيف ارتويت

أنا وأنت غريبان نحنّ الى وطن واحد. وفيّ ما فيك من الحنين . غير ان حنيني أبكم أصم : وحنينك ناطق ومجنح

لذاك اذا سمعت حنينك متكلما تحرك حنيني وتكلم . لانه قد وجد في حنينك لساناً له

أنا وأنت حائران في أمور كثيرة. وحيرتي قد تغلغلت بين أفكاري وتمددت حتى لم أعد أعرف في ما أنا حائر . لكن حيرتك نصب عينيك فاذا ما صورتها لي تصورت أمامي حيرتي

تسألني — وما القصد من هذه الامثال كلها ؟ ان قصدي يا صاحبي أن أقول - بان عواطفنا وأفكارنا مشتركة لان مصدرها واحد وهو النفس

وان في الواحد مناما في الآخر من العواطف والافكار لكنها قد تكون مستيقظة في بعضنا ، غافلة في الآخر . وان هذه العواطف والافكار ، وان استيقظت في بعضنا ، قد تكون خرساء . وانها في بعضنا مستيقظة وناطقة . وان العواطف والافكار اذا ما استيقظت ونطقت بنفسها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان ماتنطق به شعرا وان من استيقظت عواطفه وأفكاره وتمكن من أن

يلفظها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان شاعرا

واذا ان العواطف والافكار هي كل ما نعرفه من مظاهر النفس فالشعر اذن هو لغة النفس

والشاعر هو ترجمان النفس

هذا ما أعرفه يا أخي عن الشعر والشاعر فلنعد الى الزحافات والعلل

لقد وضع الناس الشعر أوزانا مثلما وضعوا طقوساً للصلاة والعبادة . فكما انهم يتأنقون في زخرفة معابدهم لتأتي « لائقة » بجبروت معبودهم . هكذا يتأنقون في تركيب لغة النفس لتأتي « لائقة » بالنفس . وكما ان الله لا يحفل بالمعابد وزخرفتها بل بالصلاة الخارجة من أعماق القلب هكذا النفس لا تحفل بالاوزان والقوافي بل بدقة ترجمة عواطفها وأفكارها

أتذكر ياأخي قول الناصري — «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي هناك أكون في وسطهم» ؟ لم يحدد ابن مريم مكانا معلوما لعبادته . فقد يجتمع اثنان باسمه على رأس

جبل أو فى جوف واد أو على ظهر باخرة أو فى قهوة أوفى منجم للفحم . ويكون هو بينهم . والشعر يقول — حيثما تفاهمت نفسان أو ثلاث باسمى هناك أكون فى وسطهن

فلا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر كما ان المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة. فرب عبارة منثورة جميلة التنسيق ، موسيقية الرنة كان فيها من الشعر أكثر مما فى قصيدة من مائة بيت بمائة قافية. ورب صلاة خارجة من قلب منكسر فوق رمال الصحراء أدركت غايتها، وذهبت كصرخة في واد صلوات خارجة من مئات من الافواه بين مئات من القناديل والشموع تحت سقوف مرصعة وقبب مزركشة

غير ان القصد الاولى من طقوس العبادة لم يكن الا شريفاً لاعتقاد الناس ان الله لا يجيب صلاة الا اذا ارتفعت اليه مع دخان محرقة : ولا يقبل محرقة الا اذا تقدمت اليه بطريقة معلومة وبعبارات منتخبة. وكذلك القصد من أوزان الشعر . فقد رأى الاقدمون ان الشعر ، وهو لغة النفس ، لا يليق

بها ما لم يكن مقيدا بأوزان . اذ وجدوا ان الاوزان تساعد على تنسيق الْجُمَلَ وتوازنها . وفى التوازن سر من أَسرار الجمال .

ان طقوس العبادة على اختلاف أنواعها جميلة لمن يفهم سر رموزها . وليس من طقس الا يرمز الى فكر . لكن من طبيعة الجمهور أن ينظر الى ظواهر الامور كما لو كانت هي جواهر الامور . فالجمهور لايفكر . بل يقبل الاشياء كما هى . لذلك فالرموز تحل عنده محل ماترمز اليه . ولذلك ترى الديانات أصبحت مجموعة طقوس وعوائد . فالذى تمكن من حفظ كل تلك الطقوس والتقاليد تأهل لان يكون كاهنا أو شيخا أو قسيسا

ولو نظرت الآن ياصاحبي الى أوزان الشعر وجدت ان حكايتنا معها هى حكايتنا مع طقوس العبادة . ان القصد الاساسى من الوزن هو التناسق والتوازن فى التعبير عن العواطف والافكار . ولا شك ان الاوزان نشأت نشوءا طبيعيا . وكان سبب ظهورها ميل الشاعر الى تلحين عواطفه

وأفكاره . والكلام المتوازن المقاطع أسهل للتلحين من الكلام الذي لاتوازن بين مقاطعه من حيث الطول والقصر لذاك لحق الوزن بالشعر ونما معه نمواً طبيعياً . فكان يتكيف بالشعر ولا يتكيف الشعر به . هكذا نما الشعر العربي ونمت أوزانه . وما زال الوزن لاحقاً والشعر سابقاً الى أن قيض الله لابي عبد الرحمن ان جمع كل ماتوصل اليه من الاوزان فبوبها وحددها وجعل لكل منها قواعد ولكل قاعدة جوازات وللجوازات جوازات الخ

منذ ذاك الحين يا أخي أخذ الوزن يتغلب رويداًرويداً على الشعر الى أن أصبح الشعر لاحقاً والوزن سابقاً وأصبح كل من قدر أن يتغلب على عروض الخليل بأوزانها وزحافاتها وعللها أهلالان يدعى شاعراً . وذاك راجع الى ماقلته عن طقوس العادة بان الجمهور من طبيعته ان ينظر الى ظواهر الأمور كما لو كانت هي جواهر الامور

لو نظرت يا أخي الى ماجمعناه منذ نيف والف سنة

لوجدته — مع استثناء قليل منه — معرضاً للابحر الشعرية بين طويلها وبسيطها وكاملها وخفيفها الخ مع ما « يطرأ عليها من الزحافات والعلل »

لا تضحك ، فالموقف موقف بكاء لا ضحك ، أمن المضحكات أن تدفن الف سنة من حياتنا الادبية بالزحافات والعلل ؟

العروض لم تسيء إلى شعرنا فقط بل قد اساءت إلى أدبنا بنوع عام ، فبتقديمها الوزن على الشعر قد جعلت الشعر في نظر الجمهور صناعة إذا أحاط الطالب بكل تفاصيلها أصبح شاعراً . واذ أن للشاعر منذ بدء التاريخ مقاماً رفيعاً بين قومه أصبح كل طالب شهرة يلجأ إلى العروض كالى أقرب الموارد . وبذاك انصرفت أكثر مواهبنا إلى قرض الشعر فافقنا اليوم ولا روايات عندنا ولا مسارح ولا علوم ولا اكتشافات ولا اختراعات . ولا شك أن كثيرين ممن انصرفوا إلى النظم حباً بالشهرة لو انصرفوا إلى غيره من أبواب الكتابة والدرس لجاءوا معاصريهم وجاءونا بنفع

كبير ، ناهيك عن أن درس علم العروض يستغرق وقتاً طويلا ، فقل معي ـ والهف قلباه على عقول إحداث لا تزال تصارع العروض على مقاعد المدرسة

لقد بلغ منا الولع بالعروض درجة أصبحنا معها لا ننطق الا شعراً (وأعني نظما) . حتى قواعد نحونا أبينا أن نلقنها لاحداثنا إلا منظومة ! هاك الفية بن مالك وهاك « نار القرى » بل قد نظمنا الحساب والجبر والجغرافية والطب والفلك ، ولم لا ؟

وأصبحنا نتراسل نظماً ، ونتصافح نظما ونشرب الخمر نظما ، ونا كل الكبة نظما ، ونعمد أولادنا نظما ، ونزوجهم نظما ، ونستقبل أصدقاءنا نظما ، ونودعهم نظما ، ونهنئهم بعيد أو بمركز أو بمولود نظما إلى أن لم يبق فى حياتنا ماليس منظوماً سوى عواطفنا وأفكارنا ! وعندما دانت لنا العروض وأتتنا زحافاتها وعللها صاغرة رحنا نكتشف طرقاً جديدة نظهر بها مقدرتنا « النظمية » فاهتدينا إلى التواريخ الشعرية فصرنا إذا مات صديقنا « حاتم منصور » ـ لا

نكتفى بأن نشق عليه الجيوب ، ونستمطر السحاب ونقرح المآقي . ونشتم الموت . ونعاتب الدهر . ونوارى الشمس والقمر فى التراب ، بل نحفر على حجر فوق رأسه تاريخ موته بأحرف منظومة لا بارقام بسيطة

زر قبر حاتم منصور الكريم وقل
كم حسرة لك فى طي القلوب ترى
تسقيك أجفاننا أرخ بادمعها
ياغصن بان لواه البين فانكسرا

فانقلب الشاعر بهلوانا وأصبح الشعر ضربا من الحلج والجمز والمشى على الاسلاك والانتصاب على الرأس ورفع الاثقال بالاسنان ولف الرجلين حول العنق الى ما هنا لك من الحركات التي تجيدها القردة أيما اجادة . من ذلك الالغاز الشعرية • وحل الالغاز . والمنظومات التي بعض مفرداتها أو كلها منقطة . وبعضها أو كلها مهملة . أوحرف منقط فيها يليه حرف مهمل والتشطير والتسميط والتخميس الخ

ومن المضحكات المبكيات ياصاحبي ان مثل هذه

الحركات البهلوانية كانت ولا تزال تعرض فى سوق آدابنا « كشعر » وأربابها كانوا ولا يزالون فى مقدمة الشعراء عندنا والشعر براء منها ومنهم . فعلى من اللوم ؟

أى يا أخى . انك لمحق فى قولك بان ليس كل شعرنا من هذا القبيل . بل أبواب الشعر عندنا كثيرة وواسعة . فمنها الغزل والنسيب . ومنها المديح والهجاء . ومنها العتاب والرثاء . والفخر والخمر . لكن هذه الابواب يا أخى قد أصبحت كذلك معرضاً للعروض والقوافى لا للشعر

لقد كان البدوى يتصبب على الاطلال والدمن ، وينادى الربوع والركبان ، اذا نظر الى القمر رأى وجه حبيبته فيه أو الى الظبي رأى عنقها فى عنقه وفى عينيه عينيها . ونحن لانزال نتصبب على الاطلال والدمن ولا اطلال عندنا ولا دمن وننادى الركب ولا ركب نناديه . وقل ممن يقرض العروض فى أيامنا من رأى فى حياته ظبياً فالتاً . . .

واذا هزتنا الحماسة طعناً بالهندوانى واليماني ونحن لم

نطعن فى حياتنا ضبا ولو بسكين صغيرة

واذا مدحنا لم نجد بدا من وضع من نمدحه فوق الشمس والقمر

لقد شام هذا البدر فيك رجاحة
عليه بميزان البها اذ تاملك
هوت كفة الميزان فيك الى الثرى
وخفت به الاخرى فعلق بالفلك

واذا رثينا لانجد سبيلا لرثاء الفقيد الا بذم الاحياء

والموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

فالموت لم يخترك ولم يخترنى بعد يا أخى . فلا أنا ولا أنت من الجياد ولا هذه الملايين التى تصبح على وجه الارض وتمسى بل الجود كل الجود تحت التراب ، ولا يمشى فوق التراب سوى كل زنيم خسيس ! . . .

أى لحق ما تقول ، فليس كل ما ينظمه شعراؤنا من هذا النوع. لاسيما شعراء اليوم ، فقد أخذوا يفتشون عن مصادر جديدة يستقون منها الالهام، ويحضرنى الآن بعض

منها الطيارات ، الكهربائية الغازات المسممة ، التلفون ، الفونغراف ، كرة الرجل أو « الفوتبول » . الاستقلال ، حدائق الحيوانات ، الديمقراطية ، الاشتراكية الخ ، الخ نعم نعم هم ينظمون اليوم فى مثل هذه المواضيع ، وفى ذلك شاهد على أنهم سائرون مع العصر لا وراءه . لذلك يدعونهم « عصريين » ، اعتبر ذلك أيضاً فى دواوينهم ، أولا ترى كيف يتفننون اليوم فى طبعها ؟

لقد كان واحدهم سابقاً يكتفى بنشر ديوانه مبوبا تبويباً محكما أو مرتباً حسب أحرف الهجاء ، أما اليوم فتأخذ الديوان وتجد فيه عدا عن القصائد الشائقة العصرية رسوما لا تترك عندك من شك فى عبقرية الناظم . هناك رسمه وهو فى العاشرة ثم رسمه وهو فى العشرين ، ثم فى الثلاثين ثم رسم زوجته وأولاده ، ورسم بيته ، ورسوم أصحابه الذين رثاهم ورسوم أقربائه الذين هناهم أما بمولود أو بممود أو بزفاف أو بعودة بعد غيبة

نعم ، نعم ، ان هذه كلها « لمواضيع عصرية » والذين

ينظمون فيها لاشك « عصريون » ـ سائرون مع العصر لاوراء وانما ينقصهم أمر واحد ـ وذلك أن يسيروا ولو بعض الطريق وراء الشعر فقد ساروا أجيالا وراء الزحافات والعلل

لا بد لنفسى ونفسك يا أخى وأنفس من ينظمون «عقود» المديح الفارغ والرثاء الشائن والغزل الذي لا غزل فيه من أن تستفيق يوماً من غيبوبتها الطويلة ، حتى أنفس من ينظمون التاريخ ليأتيها يوم تنفتح فيه أعينها فترى الشمس والفضاء ، ولا تستفيق أنفسنا إلا إذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا لا خارجاً عنا ، وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة أو الحياة الخارجية إلا منبه لما كمن فى داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا أفكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء ، ان الحياة ارث مشترك ولى فيها ما لك ، غير أن ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من من العواطف والافكار لانها مفتاح اهراء الحياة العجيب

الذي كلما ولجت منه باباً أدى بك الى باب سواه

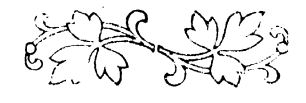
أى . يا أخى ان عواطفنا وأفكارنا هى ما استيقظ من الحياة فينا ، ومن الغريب أنه كلما تحركت فينا عاطفة أو تململ في داخلنا فكر تأتيهما ساعة تلفظهما النفس كما تدفع الحامل الجنين من أحشائها عند اكتمال دور الحمل كأن النفس لا تعرف ما في داخلها إلا إذا انتصب أمام عينيها ، وكما أن الحامل تجهض وتعود فتحمل ، كذلك النفس كثيراً ماتلفظ عواطفها وأفكارها قبل الاوان فتظهر ناقصة مشوهة ، لكنها أبداً تعود فتحمل وتعود فتلد ، والنفس التي تولد عواطف جميلة وأفكار حية ناضجة هى النفس المستيقظة النفس الشاعرة ، وما تولده مثل هذه النفس هو الفن والفن إذا اتخذ الكلام ثوباً كان شعراً

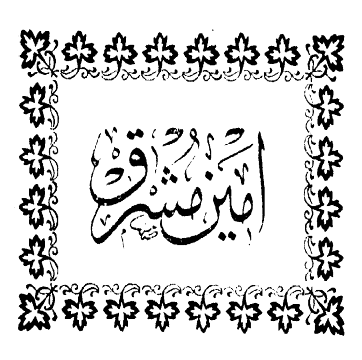
أما النفس التي لاتولد إلا أوزاناً صحيحة وقوافى رنانة فهي النفس المصابة بالعقم ، ولا بد لهذه النفس من أن تتلقح يوماً بجرثومة الحياة فتجد فى داخلها عواطف وأفكاراً لا أوزاناً وقوافى فقط

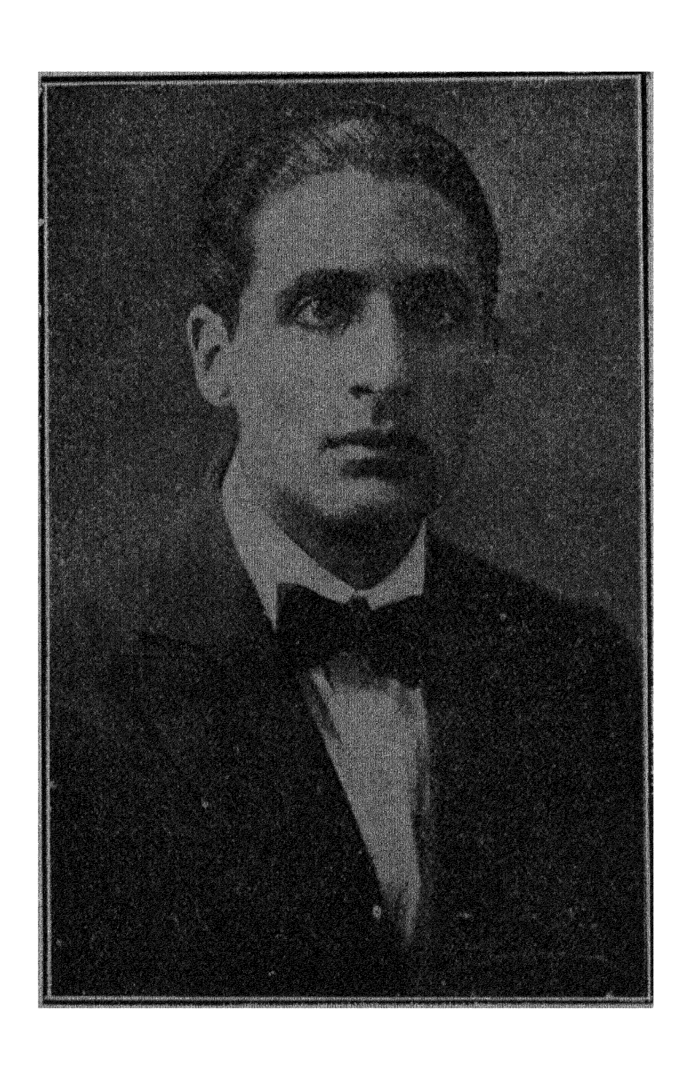
لقد نبهتني ياأخي الى أمر ما كنت غافلا عنه حين قلت لى أن شعراءنا في هذه الايام قد تعدوا أبواب الشعر القديمة وإنهم يفتشون عن مواضيع جـديدة تجول فيها قرائحهم فذكرت لك بعض تلك المواضيع وضحكت منها وضحكي كان ممزوجاً بالمرارة والامل ، أما المرارة فلأن شعراءنا لا يزالون يبحثون عن الشعر فى رغوة الحياة وفقاقيعها . وأما الامل فهو انهـم يبحثهم عن مواضيع جديدة لابد من أن يعـثروا يوما على الشعر فيدركوا انه لا ينحصر فى عشرات من البحور ولا فى ألوف من الابواب. ففي كل عاطفـة باب وفى كل فـكر بحر . بل ان فى مظهر واحد من مظاهر العاطفة الواحدة الف باب وباب . وفى ثنية واحـدة من ثنيات الفكر الواحـد الف بحر وبحر . ومتى أدركوا أن مصدر الشعر طي النفس عكفوا على درس نفسهم وتفقدوا زواياها وخباياها . حتى اذا ماعثروا هناك على عاطفة ترتعش وفـكر يتململ صاغوا لتلك العاطفة ولذاك الفكر لباسا من الـكلام يليق بهـما . وليس من الـكلام

ما يليق لباساً للعاطفة الحية والفكر المستيقظ الا ماجمع منه بين تأليف ألوان الرسام وتناسق أشكال النحات وتوازن خطوط البناء وترابط الحاق الموسيقى

حينئذ يا أخي تثمر قرائحنا فيكثر شعرنا وتقل زحافاتنا وعللنا




امینِ مشرق



الداء العياء

ظهرت منذ مدة في مجلة « الهلال » قصيدة « لامير الشعر » أحمد شوقي بك بعنوان « درة شوقية » . ثم رأينا بعد ذلك في أحد أعداد « السائح » مقالا لميخائيل نعيمه ينتقد فيه تلك القصيدة انتقاد شاعر صميم ونقاد ماهر لاتلهيه رنات القوافي ورقصات الاوزان عن الجد في تطلب المعاني الرزينة . فكان ان تلك «الدرة» — بعدأن تفحصها نعيمه بمكرسكوب شاعريته ونقر عليها بمطرقة قريحته — لم تكن درة . بل كانت صدفة براقة تصلح للعب الاولاد . أما البالغون المدركون فلا قيمة لها عندهم

لاشك ان كثيرين من ذوي الذوق السليم وأنصار الحرية الأدبية في أميركا ومصر وسوريا لايترددون في الانتصار لناقد القصيدة على ناظمها . ولا شك أيضاً في ان ألوفا من مريدي «أمير الشعر» وتابعيه يودون لو أعطى لهم أن يتخذوا الفضاء صفحة يخطون فيها بدلا من الشمس

علامة سؤال وبدلا من القمر علامة تعجب ويصورون بسائر النجوم والمذنبات هذه العبارة — « من هو هـذا النعيمه ليتجرأ على رفع بصره الى عرش أمير الشعر ؟ ! »

من واجبات الايام الجواب على هذا السؤال

أما أنا . أنا الدودة الحقيرة فلا أتجاسر على المخاطرة بحياتى « ودحش نفسى بين هذين الجبلين » لالا . أحب الى خوض معارك السوم وفردون من الخوض فى هـذه المعمعة . لذلك عولت على أمر لم يفعله قبلى سوى الحطيئة القائل

أبت شفتاى اليوم الا تكلما * بسوء فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً قبح الله خلقه * فقبح من وجهوقبح حامله

نعم قد عولت على هجو نفسى كما هجا ذاك وجه الخارجى . لـكن بينى وبينه فرقا بعيداً أرجو القراء أن لا يتجاهلوه لـكيلا يضيع عليهم المقصود من هذه الاسطر وهو ان زميلى الحطيئة المرحوم هجا وجهه لمجرد اللذة

في الهجو كما يعترف . وانا انما أفعل ذلك أولا حبا بقول الحق وثانياً التماساً للنفع العمومى

كنت في نيويورك يوم وفاة الاسقف رفائيل هواويني وبما انني كنت في ذاك الزمان أعد نفسي في طليعة فحول الشعراء ، وبما انه من أولى واجبات الشاعر رثاء من يموت من كبراء قومه — دبجت اسمى الكريم في بروغرام حفلة التأبين ومضيت الى غرفتي فأخذت قاماً وورقة وجلست أعصر دماغي مدة عشر ساعات الى أن أتيت على قصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً . أوقل ثمانية وأربعين سهما مسموما في صدر الشعر الحقيقي . أو ثماني وأربعين دملة في وجه الأدب السامي الجميل

تأملوا بهذا المطلع —

ماذا أقول وقدأضل جناني هول المصاب وغل فيه لساني

انظروا : جئت أسأل القوم ماذا أقول ، إن كنت لا أدرى ما الذي أقوله فلماذا وقفت على منبر التابين ، وإن كنت أدرى فلماذا سألتهم ؟ ثم اذا كان هول المصاب قد

أضل جناني وغل لساني فمن عاد فهدى ذاك الجنان وحل عقدة ذاك اللسان حتى تمكنت من القاء ثمانية وأربعين بيتاً (على فرد نفس)؟

طرق النعي مسامعي فكانما سهم أصاب حشاشتي فرماني

أقسم بكل عزيز انه عند ما طرق مسمعي خبر الوفاة سررت لعلمي بان أمامي فرصة اظهر بها « بلاغتي الشعرية » أو بالاحرى بلادتي الادبية

ما كنت أعرف مرة معنى البكا
حتى بكيت لفرقة المطران

أصحيح أن امين مشرق بكى لفرقة المطران وهو لم يكن يعرفه ولا رأى قط وجهه؟ لا أرى أحداً من سكان الارض يصدق ذلك وهب جدلا انني بكيت، ألم أبك قبلا على أعزاء من أهلي ماتوا ووارى التراب أجسادهم المحبوبة فان كانت الدموع التي ذرفتها على أولئك الاعزاء غير كافية لتفهمني معنى البكاء أفتفعل ذلك دمعة أذرفها على

رجل غريب عني ومجهول مني ؟ سبحان من علمني هذا المنطق

وهلا تصدقون ان في الاجساد البشرية براكين

كبراكين الارض اسمعوا

طفح الفؤاد وفاض في نيرانه فكأنما هو فوهة البركان

ألف حمدلله على سلامة الذ يا من شر ذلك البركان

ومنها

لو يفتدى حكم الاله رايتنا نفديك بالارواح والابدان

متقاطرين على الردى متسابقين اليه من شيب ومن شبان

لو وقف عزرائيل في تلك الساعة عند رأس الميت وسأل ذلك الجمع الغفير متطوعاً واحداً يسامه نفسه عوضاً عن نفس الاسقف فمن يتقدم ؟ وهل تمتلىء تلك الكنيسة جثثاً أم تضيق أسواق بروكلن الواسعة بجماهير النساء والرجال وكل مطلق ساقيه للريح وفي مقدمتهم هذا الداعي ؟

كفى يكفي . انى اشفق على القراء من أن أداهمهم

ببقية هذه المقيئات . هذه الاقذار المنتنة . هذه الميكروبات السامة ! ومن المضحك المبكى انه على أثر انتهائى من القاء تلك القصيدة تقدم إلى أحد أصحاب الجرائد فى نيويورك طالباً اياها ليزين بها جيد جريدته فاعتذرت اليه بلطف « وكبرياء » أن فيها أبياتا لا تزال برسم التصليح فلا أتمكن من نشرها حالا ، وكان قصدي أن أتحف بها صديقي صاحب السائح الذى « دحشها فى عبه » بعد ذلك بعشر دقائق . ولكن جريدة السائح — فى تلك الايام — كانت تستاهل قصيدتى . فانها ظهرت بعد يومين وجميع صفحاتها مكرسة لوصف تلك الليلة تحت موضوع « حفلة تذكارية » (هكذا ظهرت أيضاً بقية الجرائد) وفيها ما فيها من المنظوم والمنثور وكله ابن عم قصيدتى في البلاغة والرقة

كاتب هذه السطور لا يقصد بها اللوم والتقريع . لكنه كاحد المتعلقين باذيال الادب يملك مقداراً من غيرة تثيره وإخلاص يدفعه من حين الى آخر لالقاء كلمة أو ابداء ملاحظة قد تندفع أحيانا من صدره بعزم القنبلة لطيلة

ما يتحملها وشدة ما يضغط عليها . ذلك لانه قدر له كما قدر لكثيرين سواه ان يستفيق من « غيبوبة » سداها الاهمال ولحمتها النسيان نلقيها على بصائر وقلوب البشر أوهام الحداثة وأحلام الصبا فتضعف فيها نباهة الاحساس وتشوش عليها دقة الشعور والتمييز استفاق ونظر الى حياته الادبية الماضية كما ينظر من رأس جبل الى السهل البعيد فرآها بكل ما فيها من الاقوال والافعال والافكار وبكل ما حوته من الاشواق والاحلام والامال وهماً وضلالاً ثم نظر الى رفاقه من أبناء شعبه متفحصاً مستجلياً . مقابلاً ، فاذا بالاكثرية — الاكثرية الهائلة منهم — قد نسجت حياتها الادبية على نفس المنوال وسارت في نفس الطريق ، وجد نفسه مع الالوف المؤلفة من حملة الاقلام بيننا يسيرون فى موكب التقليد ، ناشرين أعلام الجهل ، نافخين أبواق الضلال ، ضاربين طبول الوهم والادعاء ظاهرين سيوف الخيلاء والتعصب باسم الادب ليذبحوا بها شرذمة قليلة من اخوانهم الابطال المدافعين على أسوار برج الادب

ويدكوا ذاك البرج ويمحوا آثاره ، لذلك يقف الآن في وسط الطريق ويصرخ في رفاقه صرخة مريرة املا ان يوقفهم عند حدهم صداها القاسي الشديد

قد يكون هؤلاء القوم المتهوسون باجمعهم غير قابلين اصلاحاً لانهم لم يخلقوا ليكونوا من أهل الادب ، وقد يكون بينهم فئة قليلة أو كثيرة ممن وهبتهم الطبيعة شيئاً من المقدرة الادبيه لكنها الاتز المحجوبة لانهم لم يستفيقوا بعد من « غيبوبتهم » ولم يتفحصوا شؤونهم بعيون الاخلاص التي لا يشوبها غرض . فلمثل هذه الفئة لا لغيرها توجه هذه السطور علها تقع منهم على عاطفة خدرها الوهم فتنبهها أو فكرة أعماها التقليد فتهديها ، ولجميع من يفهم العربية أقول ان الداء الذي أكل لحم لغتكم ونخر عظمها هو داء مزدوج — داء المبالغة وداء الالفاظ

المبالغة

مما يخفف ثقل اللوم عن عواتق حملة الاقلام بيننا ويكسر من حدة قلم الناقد الملتهبة أمر حقيقي فينا كالحياة

ثابت كالزمان وهو — قواعد الادب الموروثة

لو سمعنا أحد شعراء هذا العصر يرثي اسكافاً من أقربائه مات بين النعال والاحذية قائلا ان الفضل مات بموته والعلم هد ركنه والادب أمسى يتيما ويتعجب كيف ان النجوم لم تنظف حداداً والدهر لم يقف حائراً . أو لو قرأنا شعراً لآخر يمدح فيه أنور باشا وحصانه الادهم بقوله ان صهيله «في قلب أوروبا له ترديد» . أو لو سمعنا عاشقاً ينشد

أمر بالحجر القاسي فالثمه   لان قلبك قاس يشبه الحجرا

وسألنا الشعراء الثلاثة لماذا كل هذا الغلو لضحكوا منا ولا شك مشفقين لجهلنا ثم أخرج أولهم من تحت ابطه كتاب علم المعاني والبيان . وأظهر الثاني ديوان المتنبي أو الفارض . وفتح الثالث كتاب نهج البلاغة وقدموها الينا وقد لاحت ابتسامة الانتصار على ثغورهم ولسان حالهم يقول — «تعلموا هنا قواعد البلاغة وحدود البيان وبعدئذ لاتحتاجون الى سؤال»

هؤلاء القوم ، ويا للاسف معذورون بعض العذر .

كيف لا وكل ما تعلموه منذ أصبحوا يتهجاون الكلمات يبتدىء ب « حدثنا سهيل بن عباد قال » وينتهى بشرح المعلقات السبع ؟ ايلام التلميذ على حفظ مسائله . أو ليس طبيعياً أن تنمو النبتة معوجة اذا ربطناها الى حائط معوج. وهل الذنب ذنب الارض انها لاتعطي قمحاً اذا زرعناها قطربا ؟

لكن دعونا الآن من الذنب والمذنب وتعالوا نبسط أمامنا تلك القواعد والحدود التى أورثنا اياها صاحب نهج البلاغة وصاحب علم البيان وأمثالهما لنجر عليها ونتمسك بها فى مزالق الشعر ومهاوى النثر . فهل ذاك صحيح ان —

« أعذب الشعر أكذبه » ؟

الشعر والنثر كلام
ونتيجة الكلام التفاهم
ونتيجة التفاهم التأثير
وأبلغ تأثير فى الكلام الصادق
امرأة تحنو على جثة وحيدها ناثرة دموع قلبها بصمت.

وأخرى تتباكى معها مولولة ، معولة ، متفجعة بصراخ يصم الاذان . تجثو مع الاولى وقد تسرب حزنها الصامت الى قلوبنا لصـدقه ، وندير ظهورنا الى الاخرى متأففين وقد نم عويلها عن حزنها الكاذب . ينظر يسوع الناصرى الى مسامه يهوذا الاسخريوطى ويسأله بسكون واطف « ياصاحب لماذا جئت ؟ » فتفعل هـذه العبارة البسيطة المختصرة في نفوسنا أكثر بألف ألف مرة من ألف ألف خطاب لالف محام شهير فى ألف عصر . شحاذان يقول لنا أولهما « أنا جائع » ويسكت فنتحنن عليـه ونطعمه . والثانى يتلو علينا موعظة يسوع على الجبل ، باكياً بدموع راحيل ، متوجعاً كتوجع الخنسا . فنلوى عنـه كارهين مشمئزين

عرفت رجلا ذا لسان ماهر بتنميق الـكلام وله طرق خصوصية فى اللهجة واشارات رشيقة وحركات وغمزات تغري السامع للاصغاء وتترك لعبارات المتكلم رنة لطيفة ناعمة يتهادى صداها الى حين طويل . وله فصاحة فى اللفظ

واحاطة بالوصف قلما يجاريه بهما ممثل أو خطيب . اذا عرضت فى حديثه بصلة ، مثلا يصورها للسامعين مفصلا شكلها ولونها ووزنها ورائحتها وطعمها حتى يكادوا أن يشعروا برائحة البصل فى أنوفهم وبطعمه على ألسنتهم . ومع كل ذلك لم يكن أحد يصغى اليه الا اذا أراد الضحك والتسلية . وبقيت جاهلا السبب الى أن اجتمعت به مرة وجعل يحدثنى عن بقرة عجيبة واصفاً اياها وصفاً دقيقاً جميلا حتى كدت أراها أمامى . وكل ذلك الوصف لم يكن الا كمقدمة لخبر عجيب وهو انهم كانوا يطعمون تلك البقرة أقة من الارز صباحا ويحلبونها فى المساء « سطل رز بحليب بسكر وما زهر » عندئذ عرفت السر الذى يمنع القوم من الاصغاء لذلك الملسان وهو على ماهو من الفصاحة وطيب الحديث . عرفت ان جميع حسناته المنطيقية لم تكن لتعادل سيئة واحدة فيه وهى — المبالغة

لذلك الكذاب من الاخوان بيننا ألف شاعر وكاتب وخطيب

ولبقرته العجيبة ألف شبه من بقر القصائد والمقامات والروايات التى حليبها (رز بحليب بسكر وما زهر)

ناظم « فى قلب أوروبا له ترديد » كذاب كمصنف قصة البقرة ، هذا يجرب أن يقنعنا ويقنع علماء التشريح بان الارز الذى كانت البقرة تأكله لم يكن ليسقط فى معدتها بل كان يتحول رأسا الى ضرعها وهناك يمتزج باللبن فتطبخهما حرارة الدم ! وذاك لايخجل أن يصف لنا حصانا لانور اذا صهل فى الاستانة رددت صدى صهيله وادى السين فى فرنسا وغابات هيدبارك فى لندن ! أما الاول فلا يصغى اليه أحد . وأما الثانى ، ويا للعجب العجاب ، فيتهافت عليه الصحافيون لينعم عليهم بقصائده ويلتف حوله الف رهط ورهط من « شعراء » أمثاله يهنئونه بفوزه العظيم فى معترك الاوزان والقوافى . ويحييه العوام فى الاسواق هامسين فيما بينهم — « هوذا الشاعر المجيد فلان »

اننا والله لنحار فى السبب الذى جعل واضعى قواعد

الادب عندنا ان يحسبوا الكذب من أول شروط البلاغة وهم أعلام الادب والعرفان

فان الآداب الدينية والمدنية تنهى عن الكذب

وان العقل السليم لا يقبله

وان لا رقة فيه والرقة من خصائص الشعر

وانه لا منطق يدعمه والمنطق ركن الشعر والنثر

وانه لاقبل له على النقد والتمحيص . وكلاهما من أول أعمال الأدب

وان لا فلسفة فيه . والفلسفة روح الآداب على الاطلاق

وانه يظهر الامور بغير حقيقتها . وأقصى غايات الادب الحقيقة

الكذب خداع — والادب صدق

الكذب عجز — والادب مقدرة

الكذب جبن — والادب بسالة

لو وقفت ومادح حصان أنور بحضرة مجلس أدبى ليعطى كل منا حساباً عما قاله فهل أستطيع أن أدعم بشىء

من البرهان قولى فى قصيدتى السابقة — « لو يفتدي حكم الاله رايتنا » الخ . ألا يكون عندى فى تلك الدقيقة السكوت من ذهب » ؟ وهل يتمكن رفيقى من اقناع سائليه بكل ماله من الفصاحة والشهرة بامكانية ترديد صهيل ذاك الحصان فى قلب أوروبا . أم يطرق صامتاً ويؤمن بمرارة ان « حبل الكذب قصير » ؟

كلانا كذاب . كلانا قائل مالم يؤمن به عقله ولم يشعر به قلبه . وشبيه بنا من قال .

« أمر بالحجر القاسى فالثمه   لان قلبك قاس يشبه الحجرا »

يريد الناظر ايهامنا وايهام التى يدعى حبها بانه يقبل الحجر البارد الاصم اكراما لمشابهته قلبها . هذه هى كذبة فاضحة لا هي تصدقها ولا نحن ولا هو نفسه لانه لم يشعر قط بعاطفة فى قلبه تدفعه لتقبيل الحجر . ولكان كلامه اوقع فى النفس لو اعترف بانه يأخذ مطرقة ويكسر بها ذاك الحجر القاسى كقلبها تشفياً وحنقا

ثم ماهو الجمال فى تشبيه قساوة القلب بالحجر .

أفى ذلك رقة شعرية أم ضخامة حجرية ! وهلا كان كلامه ادعى للتصديق وأقرب للشعور الرقيق لو قال

أمر بالزهر فواحا فالثمه   لان قلبك زهر لثمه حظرا

لكن شعراءنا لا تستميلهم الرقة التى هى مجلى الضعف ولا يستهويهم الا ما كان قويا صلبا ، هائلا كالجبل والصخر والصحراء والبحر والجوزاء والدهر . ذلك لان حماستهم الفطرية وفطرتهم العربية لا تطربان الا لصليل السيوف ، وهتاف الالوف ، وصهيل الخيول ، وارتجاج الطبول ، واكتساح المعالى واكتساب المكارم ، وتشييد المفاخر . ولا ميل لهم ولا وقت ليلتفتوا الى أشواق وميول وشواعر واهية كالظلال ، ضعيفة كتنفس الاطفال ، متحركة فى أعماق القلب أو الى فكرة صغيرة ناقصة مبهمة تدب فى خلايا الرأس دبيب العنكبوت فى كهف مظلم مقفر . والآن ان لم يعجبكم الحجر فها كم الحديد

هاتوا المطارق ان قلب حبيبتى

أضحى حديداً فاضربوا ليلين لى

أو فأضرموا نار الصبابة حوله

بالنار ينسبك الحديد وينجلى

سكوت . سكوت لنصمت قليلا فقد طفح القلب بالتذكارات المؤلمة وأمسى الكلام مراً فى الحلق . وحق الاخلاص وحرمة الادب اننى كلما توغلت أفكارى فى هذه الانفاق السوداء الوعرة ينقبض قلبى وتضيق أنفاسى كأننى مسجون فى بيت يحترق . وكلما حاولت الخروج عرض فى وجهى الف حائط يسد علىّ طريق الخلاص . وكلما أغلقت ورائى مخرجا انفتح أمامى ألف مدخل يعيدنى الى غرف اللهيب والدخان . حديث الشجون لاينقطع . التذكارات المؤلمة لانهاية لها ، جروح النفس لاتندمل سريعا كجروح اللحم ولربما ضاقت الفسحة المخصصة لهذه الاسطر فى « السائح » عن وسعها . لذلك سأدفن القسم الاخير منها فى صدرى ولا أخرجه الا متى ضاق هذا الصدر المسكين مرة أخرى ، سأحذف « داء الالفاظ » وأترك لكم مقالتى مبتورة . لكننى سأقدم لكم عوضا عنها ماهو أفضل منها .

وأود أن تقابلوا بينـه وبين من يشتهي أن يطرق قلب حبيبته بطارق حـديدية . فاسمعوا هنا ما يقوله فى رواية « نوتردام دى بارى » كازيمودو المشوه الاحدب فى قصيدة يخاطب بها فتاة يعبدها لـكنها تحب فتى آخر جميل الصورة قبيح النفس محبة عمياء

Jeune fille, le sapin n'est pas beau,
N'est pas beau comme le peuplier,
Mais il garde son feuillage l'hiver.
Helas ! a quoi bon dire cela ?
Ce qui n'est pas deau a tort b'etre ;
La beauté n'aime que la beauté.
Avril tourne le doe à Janvier.

وان لم يعجبكم هـذا فهاكم رسالة طالعتها فى رواية لفيكتوريا كروس الـكاتبة الانـكليزية من « برنار » الي زوجته التي فرت مع رجل آخر يدعى « بلهام » تاركة فى بيتها طفلتها الوحيدة التى لاتتجاوز بضعة أشهر من السن

Dear Lydia, I have obtained a divorce against you, as I believe this is the best and kindest thing to do for you. Pelham can now marry you if he chooses, and I hope he will. I say nothing of myself. You, who always studied these things, will know

how bitterly I must have suffered. But I do not blame you altogether. I know there must have peen faulte on my side too. I blame myself terribly for having lost you. The child has died. There seems little to live for, but I still go on.

Yours,
Bernard.

أيها الكويتبون والشويعرون ، أيها المتهوسون الناطحو السحاب برؤوسهم الفارغة ، أيها المقلدون الكذبة ، المفاخرون بحقارة أجدادهم ، المرتدون أطمار ماضيهم ، المتلاهون بسخافة أمسهم ، سيروا سيروا على قواعد أدبكم العقيمة الضخمة ، طالعوا المعلقات السبع واشرحوها وتبسطوا ادفنوا عقولكم المتضخمة فى مقامات الحريرى والزمخشرى والشريشى ، استقوا من ينابيع البديع واستزيدوا من « طرقت الباب حتى كل متنى » طرقوا القلوب الحديد بمطارقكم الحديدية تغزلوا بالضلفع والرعبوبة تباكوا على الطلول الدوارس غوصوا على درر مجمع البحرين واجمعوا منها العقود المسجعة كامثال « فكشف عن سراويله وأشار الى غرموله » . ولكن أستحلفكم بكل عزيز أن تدفنوا تلك

الجواهر والدرر فى صدوركم فنحن لسنا بحاجة اليها ، لماذا تطرحون درركم قدام الخنازير ؟ اذا كتبتم مقالة حشوها درر فلا تنشروها فى جريدة ، وان هبط الوحي عليكم بقصيدة رنانة ساحرة فلا تتكرموا بها على مجلة أنتم قد شبعتم من العلم والمعرفة فلا حاجة لكم للاستزادة . لكن هناك فئة من لحمكم ودمكم قد مزق الجوع أحشاءها وأحرق العطش قلوبها . تحننوا عليها يتحنن الله عليكم ، أفسحوا لها الطريق لتبل أفئدتها ببلغة ، اتركوا جبران يحدثنا عن « البنفسجة الطموحة » وعن « يوسف الفخرى » اخفضوا تهاليلكم برهة فنسمعه ينشد فى سكون الليل « يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين » . قفوا قليلا ودعونا نراقب ميخائيل نعيمه جاثيا يبتهل الى ربه — « واجعل اللهم قلبي واحة تسقى القريب والغريب » خلوا هذه البلابل الغردة وأمثالها تصدح على أغصانها ، اتركوا هذه النفوس الحرة الجبارة تفكك عن نفوسكم الاسيرة سلاسل العبودية والظلام ،

دعوا هذه النسمات المنعشة تهب على وجه آدابكم ولغتكم العلية المشرفة على الموت قبل أن يفوت الاوان . بقية المروءة نستنجد فيكم . فضلات الشرف نستصرخ . ظل النخوة نسترحم . أتسمعون ؛ أترحمون ؟

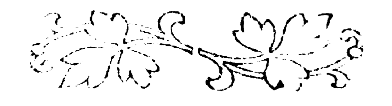
والآن هاأنا أختم كلامى . ولكننى على أمل الحصول على مايرضى منكم بهذا الشان سأجعل ختامى حاويا من الالفاظ مايلذ لكم ويطيب . ولا أراكم الا شاكرين لى هذه الهمة ومراعين عواطفى فى المستقبل كمراعاتى عواطفكم فى الحاضر

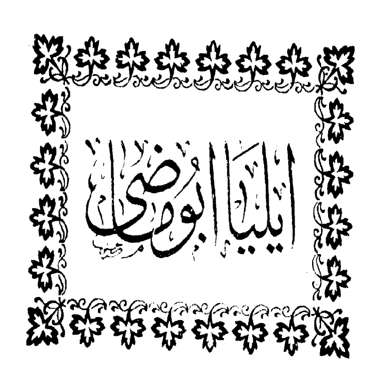
كان أحدهم يذكر شعر صفى الدين الحلى ويقول ان لا عيب فيه سوى قلة استعمال الالفاظ الغريبة . فأرسل صفي الدين الحلى اليه بهذه الابيات

انما الحيزبون والدردبيس
والطخا والنقاخ والعلطبيس
والحراجيج والشقحطب والعو
قب والعنقفيز والعنتريس

والغطاريس والعقنفس والعفسـ
لق والجربضيض والعيطموس
والسبنتى والحقص والهيق والهـ
جسرش والطرقسان والعسطوس
لغـة تنفر المسامع منهـا
حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الو
حشى منهـا ويترك المـأنوس
لم نجـد شادنا يغنى «قفا نبـ
ك على العود اذ تدار الكؤوس
لا ولا من شدا «أقيموا بني أمى»
اذا ما أديرت الخنـدريس
خـل للاصمعى جوب الفيافى
فى نشاف تخف فيـه الرؤوس
وسؤال الاعراب عن صيغة اللفـ
ظ اذا أشكلت عليه الاسوس

درست تلكم اللغات وأمسى
مذهب الناس مايقول الرئيس
انما هذه القلوب حديد
ولطيف الالفاظ مغناطيس




ايليا ابو ماضي

نحن

كم خفضنا الجناح للجاهلين
وعذرناهم فما عذرونا
خبروهم ، ياأيها العاقلونا ،
انما نحن معشر الشعراء
يتجلى سر النبوة فينا
ذكروهم ، فرب خير كبير
فعلته الهداة بالتذكير
انما الناس من تراب ونور
فبنوا النور يعبدون النور
وبنوا الطين يعبدون الطينا
قيل عنا : قصورنا من هباء
تتلاشى فى ضحوة ومساء

أو سطور بالماء فوق الماء
لو سكنتم قصورنا بعض ساعة
لنسيتم شهوركم والسنينا
لو دخلتم هياكل الالهام
وسبحتم في عالم الاحلام
واجتليتم سر الخيال السامى
وعرفتم كما عرفنا الله
لخررتم أمامنا ساجدين

ابنة الفجر

ان أنا أغمض الحمام جفونى
ودوى صوت مصرعى فى المدينة
وتمشى فى الارض داراً فدارا
فسمعت دويه ورنينه

لا تصيحى واحسرتاه لئلا
يدرك السامعون ماتضمرينه
واذا زرتنى وأبصرت وجهى
قد محا الموت شكه ويقينه
ورأيت الصحاب جاثين حولى
يندبون الفتى الذى تعرفينه
وتعالى العويل حولك ممن
مارسوه وأصبحوا يحسنونه
لا تشق علىّ ثوبك حزنا
لا ولا تذرفى الدموع السخينة
غالبى اليأس واجلسى عند نعشى
بسكون انى أحب السكينة
ان للصمت فى المآتم معنى
تتعزى به النفوس الحزينة
ولقول العذال عنك «بخيل»
هو خير من قولهم «مسكينه»

وإذا خفت أن يثور بك الوجد
فتبدد أسرارنا المكنونه
فارجعى وأسكبى دموعك سراً
وامسحى باليدين ماتسكبينه

**
*

يا إبنة الفجر من أحبك ميت
ولأنت بمثل هذا رهينه
زايل النور مقلتيه وغابت
تحت أجفانه المعانى المبينه
فاصيخى هل تسمعين خفوقا
كنت قبلا فى صدره تسمعينه ؟
وانظرى ثم فكرى كيف أمسى
ليس يدرى عدوه وخدينه
ساكتا لا يقول شيئاً ولا يسمع
شيئاً وليس يبصر دونه

لا يبـالى أ أودعوه الـثريَّا
أم رموه في حمأة مسنونه
واذا الحارسان ناما عياء
ورأيت أصحابه يتركونه
فتعالى وقلبى شفتيه
ويديه وشعره وجبينه
قبل أن يُسدل الحجاب عليه
ويوارى عنك فلا تبصرينه
واحذرى ان تراك عين رقيب
وائن كان حل ما تحذرينه
فاذا ما أمنت لا تتركيه
قبلما يفتح الصباح جفونه

***

واذا الساعة الرهيبة حانت
ورأيت حراسه يحملونه

وسمعت الناقوس يقرع حزناً
فيرد الوادى عليه أنينه
زوّدى الراحل الذى مات وجداً
بالذى زود الغريب السفينه
نظرة تعلم السموات منها
انه مات عن فتاة أمينه

*
* *

طوت الارض من طوى الارض حيا
وعلاه من كان بالامس دونه
واختفى فى التراب وجه صبيح
وفؤاد حر ونفس مصونه
فاذا ما وقفت عند السواقى
وذكرت وقوفه وسكونه
حيث أقسمت ان تدومى على العهد
وآلى بانه لن يخونه

حيث علمته القريض فامسى
يتغنى كى تسمعى تلحينه
فاذكريه مع البروق السوارى
واندبيه مع الغيوث الهتونه
واذا مامشيت فى الروض يوما
ووطأت سهوله وحزونه
وذكرت مواقف الوجد فيه
عند ما كنت بالهوى تغرينه
حيث علمته الفتون فاضحى
يحسب الارض كلها مفتونه
حيث وسدته يمينك حتى
كاد ينسى شماله ويمينه
حيث كنت وكان يسقيك طوراً
من هواه وتارة تسقينه
حيث حاك الربيع للروض ثوبا
كان أحلى لديه لو ترتدينه

فالثمى كل زهرة فيه انى
كنت أهوى أزهاره وغصونه

ثم قولى للطير مات حبيبي
فلماذا ياطير لا تبكينه ؟

*
* *

واذا ما جلست وحدك فى الليل
وهاجت بك الشجون الدفينه
ورأيت الغيوم تركض نحو الغر
ب ركضاً كأنها مجنونه
ولحظت من الكواكب صدا
ونفارا ، وفى النسيم خشونه
فغضبت على الليالى البواقى
وحننت الى الليالى الثمينه
فاهجرى المخدع الجميل وزورى
ذلك القبر ثم حيي قطينه

وانثرى الورد حوله وعليه
واغرسى عند قلبه ياسمينه

فلسفة الحياة

أيها ذا الشاكى وما بك داء
كيف تغدوا اذا غدوت عليلا
ان شر الجناة في الارض نفس
تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمي
ان ترى فوقها الندى إكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظن الحيـاة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال
لا يرى فى الوجود شيئاً جميلا

ليس أشقى ممن يرى العيش مراً
ويظن اللذات فيها فضولا
أحكم الناس فى الحياة أناس
عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا
واذا ما أظل رأسك همّ
قصر البحث فيه كيلا يطولا
أدركت كنهها طيور الروابى
فمن العار أن نظل جهولا
ماتراها — والحقل ملك سواها
تخذت فيه مسرحا ومقيلا
تتغنى ، والصقر قد ملك الجو
عليها والصائدون السبيلا
تتغنى، وقد رأت بعضها يؤخذ حيـ
ـا والبعض يقضى قتيلا

تتغنى ، وعمرها بعض عام
أفتبكى وقد تعيش طويلا ؟

فهى فوق الغصون فى الفجر تتلو
سور الوجد والهوى ترتيلا

وهى طوراً على الثرى واقعات
تلقط الحب أو تجر الذيولا

كلما أمسى الغصون سكون
صفقت الغصون حيث تميلا

فاذا ذهب الاصيل الروابى
وقفت فوقها تناجى الاصيلا

فاطلب اللهو مثلما تطلب الاط
يار عند الهجير ظلا ظليلا

وتعلم حب الطبيعة منها
واترك القال للورى والقيلا

فالذى يتقي العواذل يلقى
كل حين فى كل شخص عذولا

كن هزاراً فى عشــه يتغنى
ومع الكبل لايبالى الكبولا
لاغرابا يطارد الدود فى الا
رض ويوما فى الليل يبكى الطلولا

*
* *

كن غديراً يسير فى الارض
رقراقا فيسقى من جانبيه الحقولا
تستحم النجوم فيــه ويلقى
كل شخص وكل شيء مثيلا
لا وعاء يقيــد المــاء حتى
تستحيل المياه فيــه وحولا

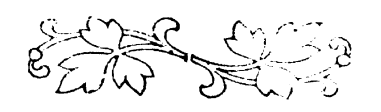
*
* *

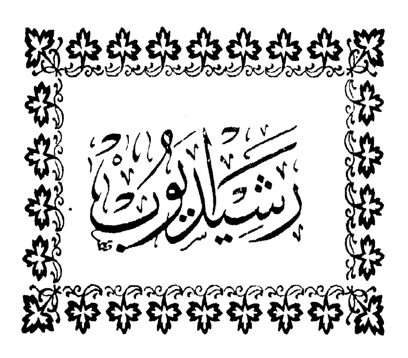
كن مع الفجر نسمة توسع الا
زهار شما وتارة تقبيــلا

لاسموما من السواقى اللواتى
تملأ الارض فى الظلام عويلا
ومع الليل كوكباً يؤنس الغا
بات والنهر والربى والسهولا
لادجى يكره العوالم والنا
س فيلقى على الجميع سدولا

*
* *

أيها ذا الشاكى وما بك داء
كن جميلا تر الوجود جميلا




رشید ایوب

أنفس الشعراء

لما بدا البرق فى الظلماء ملتهباً
وراح يطوى فضاء الله واحتجبا
ناديت ربى وطرفى يرقب الشهبا
رباه ياخالق الاكوان واعجبا
كم تشبه البرق هذا أنفس الشعرا

ياليل مهلا ولا تشفق على بصرى
فما تعودت فيك النوم من صغرى
ياليل مهما تطل لا بد من سهرى
حتى يودع طرفى نجمة السحر
تلك التى عشقتها أنفس الشعرا

دعه يغيض بلج الكاس أدمعه
فقد تذكر نائى الدار أربعه
وهات عودك واضرب له لنسمعه
لكن توق رعاك الله أضلعه
تلك الاضالع فيها أنفس الشعرا

ياساكنى سفح صنين وكم سفحـ
ـت للصب عين لبلوا كم ومابرحت
كأنه نازح عنكم وما نزحت
نفس له اسواكم قط ماجنحت
لا والذى عبدته أنفس الشعرا

سل الكمنجة معنى انة الوتر
والريح ان هينمت سلها عن الخبر
والطيران بكرت تشدو على الشجر
سلها وسل كل روض زاهر عطر
تجبك ياصاح هذى أنفس الشعرا

يا هائما بابنة العنقود تطربه
منها الحميًّا وفعل الراح يحسبه
أستغفر الله مما بت تنسبه
للراح ان الذى فى الكاس تشربه
ياصاحبي رشحته أنفس الشعرا

طوباك ياساكنا فى الغابات تؤنسه
الاهة الشعر والاشباح تحرسه
يضم كل لطيف الروح مجلسه
ملآنة من صفا الايام اكؤسه
وحوله تتغنى أنفس الشعرا

لله «ناى» سبتنا روح صاحبه
حتى وقفنا حيارى عند واجبه
فصحت والليل زاه من كواكبه
يانافخ الناى يحدو فى مواكبه
بنغمة الناى هامت أنفس الشعرا

يانسمة فى مروج الحب نافحة
حيث الحمائم لاتنفك نائحة
ناشدتك الله ان باكرت سائحة
عند السواقى بجو الروح سابحة
فهينمى تترنح أنفس الشعرا

الربيع

مرحباً ذبنا اشتياقا ياربيع
ياخفيف الروح أهلا مرحبا
كلما ضاء محياك البديع
هبت الارض تباهى الكوكبا
ومشى فى سفح أضلاعى صريع
مات لولا ذكر أيام الصبا
عجبا تمضى زمانا وتعود
وربيعى قد مضى لم يرجع
من ترى أنباك أسرار الخلود
فتوقيت الردى لم تصرع

*
* *

أم هى الارض التى تبغي البقا
عرفت كيف البقا بالاقتصاد
فأبت عن حكمة ان تنفقا
مالديها حسنا حتى المعاد

وا كتست ثوب بهاء مورقا
ماله ما دامت الدنيـا نفاد
يا له ثوبا موشى بالورود
كل عام يرتدى لم ينزع
حبـذا لو كان لى منـه برود
كنت أرويها اذن من أدمعى

*
* *

ما أحلى وجهك الصافى الجميل
رصعته بالندى أيدى الدهور
رب نفس سجنت دهراً طويل
مثلما يسجن مصداح الطيور
أصبحت مطلوقة بعد الكبول
تغتذى ريح الموامى والصخور
فهي لم تخلق لترمى بالقيود
لا ولا قـد صنعت للبرقع

عجباً فى هـذه الدنيا النقود
حجبت احدى النجوم اللامع

يا ربيع الارض يا نعم الدوا
لنفوس مالهـا الا الهموم

حيثما تنشر منها ما انطوى
وتذريه اذا مر النسـيم

ويح أهل العشق أرباب الهوى
خلقوا فى الكون كى يرعوا النجوم

قسمت أرزاقهم قبل المهود
وقفوا فى كل دار بلقع

حفظوا للناس في الدنيا العهود
انمـا حفظهـم لم ينفع

*
* *

عطرى يازهر اذيال الرياح
ان سرت فوق الرياض القشب

أودعيها كلما لاح الصباح
ارجا يغنى به عن كتبي
غربة أمست حياتى وانتزاح
ومناجاة ورعى الشهب
فاذا ما لاح للصبح عمود
بعد ليل كغراب أبقع
قلت فى نفسي وللنوم صدود
أوحتى غربة فى مضجعى

*
* *

إنا لولا ذكر أيام الصبا
قلت يا نفسى إذا شئت اذهبي
غير أنى كلما هبت صبا
أنعشت قلبى بذكر طيب
لا أبالى إن حللت المغربا
طالما شمس المنى لم تغرب

فحياة المرء فى هـذا الوجود
رغبة النفس وعت أو لم تعى
وبكائى للأولى طى اللحود
كعزائى بالأولى باتوا معى

الدرويش

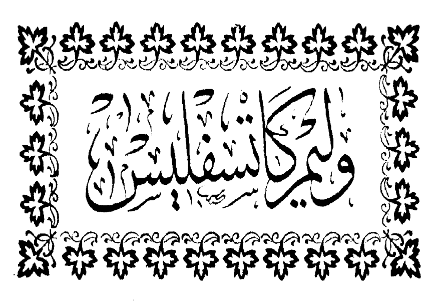
دعته الامانى نخلى الربوع
وسار وفى النفس شىء كثير
وفى الصدر بين حنايا الضلوع
لنيل الامانى فؤاد كبير
فحث المطايا وخاض البحار
ومرت ليال وكرت سنون
ولم يرجع
وألقى عصاه وحط الرحال
بأرض الاشاوش والاشبل

تنم عليه فعال الرجال
كما نمت الريح بالمنـدل
وراح يغنى بصفو الزمان
غناء البلابل فوق الغصون
على مسمعى

فمرت سعود ، وجاءت نحوس
(وقد نصل الدهر صبغ الشباب)
فعلل نفساً رمتها البؤوس
بيحر هموم علاه الضباب :
أيا نفس ، صبراً لحكم القضا !
ويا نفس مهما دهتك الشجون
فلا تجزعى !

فما بال نفسى بنت الخلود
تخاف الخلود وتأبى الذهاب!
وقلبى الخفوق عراه الجمود
أيخشى التراب ابن هذا التراب!

وبات المسافر في حيرة
بمعنى الحياة وسر المنون
ولم يرجع
أيا جيرة الحي ، أين الطريق ؟
فاني ضللت عن المنزل
لقد كان لي في حماكم رفيق
من المهد في الزمن الاول
فغضوا العيون وفيها الدموع
فحار فؤادي بتلك العيون
وفي الادمع
وقالوا : رأينا شريداً يجول
بعيداً عن الناس في معزل
يبيت الليالي يؤم الطلول
ويبكي على عهده الاول
فقلنا : دعوه عراه جنو
ن ومرت ليال وكرت سنون
ولم يرجع


ولیم کاتسفلیس

البترون * سنة ٢٥٢٠ م

شهر ايار أو نوار كما يسميه العامة فى سوريا هو أجمل أشهر السنة وأكثرها رونقاً وزهاءاً فى كل أقطار العالم وبنوع خاص فى سوريا ، حيث تظهر الطبيعة بأبهى رداء ، وأصفى سماء وأعذب هواء ، إذ ينتشر عبير الازهار مالئاً الفضاء عطراً ، والعين سروراً والصدر انشراحاً ، هناك يعانق الشاطئ الاخضر البحر الازرق كما يعانق الحبيب الحبيبة وكأنى به يفاخر سائر الشواطئ والمدائن بجمال حبيبه قائلا . « من له مثل هذا البحر الفتان »

هناك — بين تلك الهضاب والرياض — بين أريج الياسمين والمنثور وبخار المياه إذ تلطم الصخور فتتصاعد فى الفضاء كاللؤلؤ المنثور ، هناك عند أقدام الجبال المزنرة بأشجار الشربين والارز فى شهر ايار من سنة ٢٥٢٠ كنت ترى الجماهير من الناس قد ملأت الطرقات والفضاء كلها متجهة نحو بناية هائلة فى جوار البترون ، من القوم من جاء

من مصر وفلسطين ودمشق ومنهم من العراق وحلب وحماه وحمص وطرابلس وغيرها من مدائن سوريا فى المناطيد السريعة التى تمر فى الجو مر البرق وفى النقالات العمومية المرتفعة عن الارض نحو مائتى ذراع والتى تسير على دولاب واحد فوق شريط من الفولاذ بسرعة المناطيد تقريباً ، ومنهم وهم الفقراء من جاءوا من الاماكن القريبة فى سيارات عظيمة الحجم من طراز النقالات القديمة العهد

قلت ان هذه الجماهير كانت متجهة نحو بناية عظيمة فى جوار البترون ذلك لسماع محاضرة الاستاذ محمد جمال العلم الزهاوى . فالمحاضرات العمومية التى تقام على نفقة حكومة العالم المتحد تجرى فى تلك البناية فى شهر ايار وفى دمشق فى شهر آب وفى القاهرة فى كانون الثاني هذا لابناء اللغة العربية الخالدة .

أما البناية التى مر ذكرها فهى كناية عن قاعة مستديرة مساحة دائرتها لاتنقص عن الميل . مقاعدها مرتفع أحدها عن الآخر بحيث يرى الجالس فى أرفع المقاعد مايراه فى

أوطاها. جدرانها من زجاج وسقفها من الالومنوم ومنصة الخطابة أو المنبر في صدرها . على ان بناءها محكم هندسياً بنوع أن يسمع الصوت فى أقصى المقاعد عن المتكلم بجلاء ووضوح كما يسمع فى أقربها اليه وهذا فوز كبير للهندسة الحديثة فى البناء وتحسين شروط السماع أو الاكوستيك .

الاستاذ محمد جمال العلم الزهاوى هو من صنف المرشدين . اذ لايخفى ان جماعة العلماء العمال ممن نالوا أكثرية الاصوات لاجتهادهم وتفوقهم يقسمون الى ثلاثة أصناف أو أقسام : المجربون وهم الذين يعملون فى البحث والتنقيب والاختبار والاكتشاف والاستنباط .

والمصنفون وهم الذين يؤلفون الكتب وينشئون المقالات فينشرون بين الورى نتائج الاعمال .

والمرشدون وهم الذين يخصصون قسما من أوقاتهم للخطابة والمحاضرات

وكان الاستاذ محمد من هؤلاء وقد اشتهر بين المتكلمين بالعربية بالفصاحه مع توقد الذهن وملاحة الاسلوب فضلا عن وافر علمه وسعة معارفه .

فلما احتشد الناس فى القاعة وامتلأت المقاعد والقوم بين حديث وضحك ولعب وهرج ومرج إذ ظهر نور أحمر فى وسط القاعة من جهة السقف وكان هذا النور لوحاً كبيراً ظهرت عليه كتابة بالكهربائية مآلها : « فتحت الجلسة فعليكم بالسكون والسكوت » .

وما كادت تظهر هذه الكتابة حتى عم السكون فكأن القاعة خاوية خالية لا يسمع فيها سوى نبضات قلوب الالوف المجتمعة من رجال ونساء . إذذاك انتصبت رئيسة الجامعة القحطانية المرشدة استير ليفى وقالت « سادتى !

إن الوقت المخصص لهذا الاجتماع ساعتان كما تعلمون فالبرنامج هو هذا : موسيقى آلية ثلاث دقائق . ثم نشيد جوق الجامعة للفتيات . ثم محاضرة الاستاذ المرشد محمد جمال العلم وموضوعها « الجيل العشرون » يتلو ذلك نشيد جوق

الجامعة النابلسية للفتيان وتختم الجلسة بقرار مستشار المعارف الاديب لمخائيل البناء عن أهم أعمال الحول . أشكركم . »

فلما جلست الرئيسة ظهر على المنصة الالاتيون فلعبوا نغما لطيفاً قصيراً كى لا يمل الناس . ثم عدد من الفتيات فأنشدن نشيداً متقناً مطرباً وهى قصيدة قديمة جداً لشاعر عاش فى الجيل العشرين كان يسكن القارة الاميركية وينظم فى العربية ومن الغريب أن شعره راق رقيق خال من الحشو المبتذل بالرغم من وجوده فى ذلك الجيل المظلم المتوحش ثم انتصب الاستاذ محمد وإليكم خطابه قال :

« سادتى !

كنت أطالع من عهد قريب مجموعة خطب ومحاضرات لاناس مختلفين فى الجيل العشرين وقد استلفت نظرى فى أكثرها ان الخطباء فى ذلك الجيل كانوا يخصصون ثلث كلامهم لاطراء الحضور بالمبالغة السخيفة واطراء أنفسهم بذكر عجزهم وقصورهم وهو أسلوب مبتذل لالفات الانظار الى مقدرتهم والثلث الثانى لحشو الكلام الرنان المصفوف

صفاً والمركب تركيباً : مبنى دون معنى . مايثبت انهم كانوا يرتاحون الى هذا النوع من الثرثرة التى لا فائدة منها والتى لاتدل الا على شيء واحد وهو عناية الكاتب أو الخطيب بالتفتيش عن الكلمات والجمل التي تروق له وجمعها مترادفة سواء كانت لازمة أو لم تكن والثلث الآخر لموضوع المحاضرة أو الخطاب .

لا أخالنى ياسادة راجعاً بكم الى تلك العصور المتأخرة اما اطراؤكم فلا حاجة لى اليه لانكم أدرى بأنفسكم منى وقد تكونون الى الانتقاد أحوج منكم الى المديح . وأما الاقرار بعجزي فأخشى أن يحمل محمل الكذب اذ لولا أهليتى لما كنت حيث أنا بالتصويت الشعبي والانتخاب .

وهنا تبدو لى ملاحظة أخرى غير مختصة بخطبائهم فهى تشمل أيضاً كتابهم وشعراءهم الا النذر القليل من السابقين المولدين وهو التشابه العظيم فى أقوالهم حتى ان أكثرهم كان يردد عبارات وجملا واحدة وينهج الاسلوب عينه الذى ينهجه سواه وهذا يدل على أمرين : اما أن

المواصلات لم تكن موجودة البتة فلم يدر أحدهم بما كتب الآخر وهذا مردود تاريخياً ومنطيقياً اذ لا يعقل تكرار توارد الخواطر حتى في اللفظ . وأما انهم كانوا راسفين في قيود التقليد العقيم والسرقة الأدبية وهـذا الاصح . وقد قال الاستاذ المجرب حسين النافعي في كتابه الجليل : « تأثير الاديان في العصور المظلمة . » ما معناه :

« أما كون أبناء اللغة العربية أكثر استسلاما للتقليد من معاصريهم فلاسباب كثيرة . أهمها تأثير الاديان عليهم فالاديان كما كانوا يفهمونها في تلك الايام المحزنة كانت شديدة التحفظ بحرفية تعاليمها لا ترتاح الى البحث وتحرم الجدال . عدوة الاستقلال وحرية العقول . وقد رسخت تعاليمها المشوهة بالتفسير والتأويل في قلوب الشرقيين ونفوسهم رسوخ المرض العضال في الجسم النحيل انما الفرق بينهم وبين المريض هو ان المريض يكره علته ويسعى للتخلص منها أما هم فكانوا شديدي التمسك بعلتهم يتعصبون لها ويناضلون من رام مداواتهم وابراءهم منها .

ولذلك ولما كانت أديانهم مقلدة ومحافظة نشأوا على التقليد والخوف من كل جديد وان كان فيه التقدم والاصلاح.

ومن الاسباب أيضاً ذلهم وعدم معرفتهم الحياة الحرة المنطلقة من القيود كما يعرفها العالم اليوم فبينما كانت الامم من حولهم نائلة بعض الاستقلال يومئذ كانوا هم مستعبدين لسواهم وقد ألفوا تلك الحالة فقتلت فيهم العبودية قوة التوليد والاستنباط . أضف الى ذلك الجهل فقد كانوا . إلا الافراد . قليلى البضاعة العامية يجهلون لغات المعاصرين وآدابهم مما ضيق عليهم المسالك اه .

هذه جملة من هذا الكتاب النفيس وإنى أنصح لكم أن تقرأوه إذا سمح لكم الوقت لانه كبير الفائدة ثمين البحث فى عوامل النفس وثوران العواطف إذا هى ضلت السبيل وتمردت على ارشاد العقل .

من الغريب أن الناس فى تلك العصور كانوا يتوهمون أنهم بلغوا شأواً كبيراً من التمدن والرقى مع أن آثارهم تدل على انحطاط وتأخر . أجل انهم وضعوا أساسات الاختراعات

والاكتشافات التى حسنها من جاء بعدهم وصلت الى الدرجة التى تتمتعون اليوم بثمارها . وأن بعضهم كانوا قد بدأوا يذكرون الحقائق الكبرى ولكن هؤلاء هم الافراد القلائل أما الاكثرية فكانت تهزأ وبتعاليمهم وكثيراً ما كانت تضطهدهم

من ذلك ان المذاهب الفلسفية التى تعرف اليوم باسمائها القديمة كانت تدعى عندهم أديانا أى انهم كانوا يعتبرونها شرائع منزلة من السماء يجب عليهم اتباعها بالحرف والمناضلة عنها ومحاولة اقناع الآخرين بصحتها. واكراههم على اعتناقها اذا تسنى لهم ذلك . فكان اتباع المسيح وهم الاكثرية ولهم الصولة والحول كثيراً مايضطهدون المتمذهبين بمذهب موسى أو اليهود وفى بلادنا الشرقية كان المسلمون يحتقرون النصارى وينبذونهم وأحيانا يفتكون بهم وهم أبناء جنس واحد وبلاد واحدة ولغة واحدة لغير سبب الا الاختلاف فى المذهب الفلسفى

ولم تك « الوطنية » تلك الآفة التى سفكت باسمها دماء

كثيرة ، أقوى من العاطفة الدينية الا فى بعض الدول التى كانت تدعى التفوق وتفاخر بكونها جعلت الوطنية فوق الدين .

آواه يا سادتى . كم كانت الانسانية تشقى فى تلك الايام السوداء وما أسعدنا لوجودنا فى عصر أصبحت فيه تلك العقائد البربرية آثاراً تاريخية بدلا من أن تكون آفات حقيقية تحرمنا السعادة وتورثنا الشقاء والبلاء .

قلت أن بعض الدول التى كانت تدعى التفوق وضعت الوطنية فوق الدين أى أنها هربت من الدلف إلى تحت المزاب . فبدلا من أن تنحر باسم الدين صارت تنحر باسم الوطنية بطريقة أعم . وليس هذا فقط بل تبرر عملها وتقدسه باسم الوطن . كلمة كان معناها ملتبساً على الناس يأولونها كما تشاء أغراضهم أو ميولهم البربرية . فكأن ضمير الانسانية كان مائتاً أو متخدراً أو كأن . شيطان العالم لما فرغت يداه من سلاح الدين اخترع سلاح الوطنية لتظل الانسانية راسفة فى قيوده تحت قدميه

في الجيل العشرين ظهر في البلاد الروسية مذهب البلشفة الذي هو أقرب الى الاخاء العمومي الذي يتمتع العالم به الآن من كل مذهب تقدمه ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى مات . ذلك لانه أخطأ استعمال الوسائل . فامتطى سيف الظلم لابادة الظلم . وفي قبضة السيف عدوى تسربت الى جسمه فنخرت عظمه وأخطأ أيضاً بالتسرع إذ حاول أن يهدم في عام مابناه العالم في مليون عام فكان نصيبه مثل نصيب أسلافه الكومينسم والسان سيمونسم الخ . على أنه لم يندثر تماماً اذ ترك آثاراً في عقول المفكرين الذين فحصوه وعرفوا مواضع الضعف فيه فنبذوها واقتبسوا منه ما كان مفيداً ومطابقاً لحاجات الانسانية فصارت العقول تتمخض به جيلا بعد جيل حتى ولدته كاملا .

أتدرون يا سادتي أن الشعوب القاصرة في أيامنا هذه التي هي تحت وصاية اخوانها ممن هم أدرى منها هي بالحقيقة أرقى مما كانت أمم الجيل العشرين جميعها ؟ قد تستغربون هذا القول ولكنه حقيقة راهنة فشعوب أواسط أفريقيا

مثلا لم تصل الى ما وصلنا اليه من المعارف والتسلط على العناصر ولكنها راغبة فى الاستفادة ساعية للتعلم راضية بوصايتنا مخلدة الى السكون والمحافظة على الشرائع العمومية بينما فى الجيل العشرين وفى بلادنا هذه عينها ثارت ثائرات القوم وهدرت الدماء لانتداب فرنسا الوصاية عليهم مع أن فرنسا كانت أرقى أمم تلك العصور وما ذلك إلا لان أغلب سكان سوريا كانوا من المحمديين فرغبوا عن فرنسا لا لذنب ارتكبته أو لقصور أظهرته بل لانها على غير مذهبهم الفلسفى الذى كانوا يسمونه ديناً كما ذكرت لكم سابقاً

تلك كانت حالتهم فى أديانهم جهل مطبق يقوده علم فاسد . فعامة الناس كانت جاهلة كنه الدين وزعماء الدين من كهان وشيوخ كانوا يضرمون فيهم عاطفة التعصب لمذاهبهم والبغضاء لمن كان خارجاً عنها ليظلوا فى زعامتهم راتعين وفى رقاب العامة مالكين . فلو تركوهم وشأنهم لاهتدوا إلى السبيل وأدركوا سريعا كما أدرك من خلفهم على الارض أن الدين هو الاخلاق والاعمال فان تساوت

فى الناس بالرقى كانوا من دين واحد ومذهب واحد وما دون ذلك باطل والباطل عدو الخالق وآفة المخلوق

قلت أن ذلك الجيل الذى نسميه مظلما لم يخل من بعض المحاسن . فقد شهد تقدم الكهرباء تقدما يذكر وان كانوا لم يتوصلوا إلى الانتفاع منها كما هى الحالة الآن . وشهد أيضاً مولد المنطاد . واختراع المواد الانفجارية التى كانوا ابربرتهم يستعملونها فى الحروب للقتل والتدمير فاصبحنا وقد حسناها نستعملها كقوة محركة أوجدت العجائب . وفى ذلك العصر بدأ العلماء والجراحون يدركون فوائد التطعيم البشرى ونقل الدم والغدد ولكنه ظل فى المهد حتى جاء الجيل الذى بعده فتقدم ولم يبلغ تمام نفعه إلا فى الجيل الثاني والعشرين . وحسنوا قليلا فى الاشعة الخارقة التى كانوا يسمونها أشعة رنتجن نسبة الى مكتشفها واخترعوا الغواصات ولكنهم لم يتوصلوا إلى استخراج الراديوم من الهواء وحصر قوته الهائلة فكل هذه الاختراعات والاكتشافات كانت لا تزال فى المهد لم يجنوا

كل فوائدها . فكانت الامراض منتشرة انتشاراً كبيراً والناس يموتون بالاوجاع والآلام بدلا من أن ينطفئوا بهدو وبلا ألم كما هى الحالة الآن بفضل الاشعة الخارقة التى صرنا بواسطتها نستطيع أن نرى مافى داخل الجسم كما نرى مافى خارجه والاشعة البنفسجية والاشعة الزرقاء واستخدام الراديوم للتطعيم بالغدد الحية التى تصلح مافسد من دم الانسان وتجدد فيه مادة الحياة وغير ذلك من الامور التى يطول شرحها

وهنالك سبب آخر لكثرة أوجاعهم وقلتها بيننا وهو أنهم كانوا يفرطون فى الاكل والشرب فيحملون دماءهم سموماً من المأكولات لم تقو معدهم على هضمها كلها ومن المشروبات الروحية السامة . بينما نحن الآن نكتفى بالاشياء المغذية السريعة الهضم كالخضر والفواكه والالبان ونشرب علاوة على الماء الاكسير الذى هو عصير الفواكه لاتزيد فيه كمية الكحول عن الاثنين فى المائة . ولا نأكل اللحوم كما كانوا يفعلون ففى بعض الخضر كالعدس والفاصوليا وفى اللبن والجبن ما يغنى عن المادة الغذائية فى اللحوم وعن سمومها أيضاً .

فبينما كان معدل التعمير فى عصرهم من الخمسين الى السبعين وكان عدد الذين يموتون قبل الاربعين يعادل الثلث نرى اليوم أن معدل التعمير أصبح فوق المائة وأن الذين يموتون قبل السبعين لا يعدلون واحداً من مائة وأكثرهم يموتون من حوادث طارئة غير منتظرة

انظروا إلى البعد الشاسع بيننا وبينهم . انظروا إلى البناء الفخم الذى شيدناه على الاساس الضعيف الذى تركوه لنا . انظروا كيف اننا نستخدم العناصر كما نشاء فنحول مجارى الاهوية ونلجم العواصف ونستنزل الامطار ونقطع المسافات الشاسعة ببضع ساعات مما لم يحلموا به ان ضغط الهواء ، تلك القوة الهائلة ، كانت عندهم بابا مغلقاً إلا فى بعض الصغائر فجعلنا منها قوة تهز الارض هزاً . وأوجدنا الشروط الجوية والطقسية الملائمة ضمن جدران نقالاتنا فسخرنا بالسرعة وصرنا نجتاز من الخمسمائة إلى الألف ميل فى الساعة دون خطراً أو انزعاج .

كل هذا ياسادتى ، كل هذه التحسينات المفيدة وغيرها

مما لا يساعدنى الوقت لذكرها ثم بفضل الاخاء العمومى وتوحيد الشرائع فى الارض مع توحيد العملة وتحديد مفعولها ومنع الاحتكار وقتل عاطفة الطمع فى نفوس البشر مما أبطل الشحناء والحروب ولولا ذلك لكنا اليوم متأخرين متوحشين هائمين فى همجيتنا كما كان الناس فى الجيل العشرين ولا ريب عندى أن أولادنا سيزيدون على أفعالنا حتى يبلغ العالم من الكمال الدرجة التى نواها له الاله الذى هو الكل والكل هو الاله . أشكركم لاصغائكم

اجعلوا الحلم جميلا

هى حلم ينقضى بين ليلة وضحاها ، زهرة تتفتح مع الفجر أوراقها وتذبل مع المغيب ، معشوقة لا تكاد تمنح قبلة اللقاء حتى تذرف دمعة الوداع، هى الحياة بخمرها وخلها بأفراحها وأوزارها تمر فى فضاء الكون كنور سريع ضئيل

— فاجعلوا الحلم جميلا —

روحوا النفس فالسبيل ضيق وقصير ، إذا نثرنا فوقه الازهار ربما هان المسير ومن الجنون أن نؤثر العسير على اليسير ، ومن الجحود أن نهمل كنوز النفس وهى عطايا الاله فالعيش حلم والحلم كما نريده يكون

— فاجعلوا الحلم جميلا —

زهرة الحقل تنبت فلا تسائل لماذا ، ولا تحسد نضارة الوردة وجمالها متألمة لانها ليست مثلها محبوبة ، ولا تكيد لها المكايد لاتلافها ، زهرة الحقل قانعة بنصيبها وحالها فاقتدوا بها

— واجعلوا الحلم جميلا —

مادة وروح ، قذارة والوهية ، فالجسم هيكل من طين الآلهة هى النفس ، وليس بالجسد بل بالنفس السعادة تناسوا الجسد وحدوده ، تناسوا السجن الذى يقيد لانهاية النفس

— واجعلوا الحلم جميلا —

جسمك لا يطير إذ ليس له جناح ، أما عقلك فطائر لا تجاريه الرياح ، فاتركوا الضعف وتمسكوا بالقوة التى هى من السماء واعلوا بنفوسكم فوق سجونها لتذوقوا الهناء
حياة المرء حلم والافكار مولدة

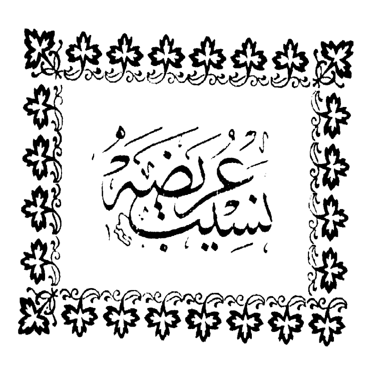
— فاجعلوا الحلم جميلا —

ماعمر الاكوان إلا المحبة ، والقلب إن لم يسع الدنيا فهو وعاء صغير ، وأن لم يفهم انغام الكائنات فهو أوتار ميتة لاتحركها أغانى الارواح المتآخيــة فليحدث كل جرح فى قلوبكم جرحا

— واجعلوا الحلم جميلا —

وعندما ينضب زيت السراج فيعود نوره من حيث أتي ويعود طينه إلى ترابه وتفلت النفس من قيود الاديم تنشد وهى سابحة فى سماء النعيم :

— لقد جعلت الحلم جميلا —



على الطريق

لماذا وقفت بخوف وحيرة
أيا نفس ، عند الطريق العسيرة ؟
الا أمشى ، فان الحياة قصيرة ،
الا أمشى !
مقر الاله بعيد ، فسيرى
لكى تدركي الله قبل النشور
فجدى ولا تسألى عن مصيرى

بعيشى .
علام التفاتك نحو الطلول ؟
أشاقك تذكار ماض يحول
فملت إلى العود قبل الوصول
الا أمشى
كفاك من الماضيات الشباب
رياض أمان سقاها السراب

فقولى — « وداعا » لماذا العتاب ؟
لنمش !
لماذا العتاب على ما انقضى
أنرجع بالعتب عمراً مضى ؟
شقينا ولكن شفانا الرضي
ألا امشى !
شقينا بحمل صليب الزمان
ولكن غلبنا الشقا بالامانى
ومن ذى وذاك نظمنا الاغانى
الا أمشى
أنفسى ، بربك خلى السآمة
وهي لنسبق تلك الغمامة
وصلى بدمع وبعض ابتسامة
فنمشى
ألا امشى ! وبعد الجهاد الحقيق
سنسبق آمالنا فى الطريق

ونجنى الاشعة قبل الشروق

ألا امشى

مناجاة

لاحت قصور الخيال تعلو متون الغمام

يا أخت روحى ، تعالى أطلت فيها المقام

*
* *

يا أخت روحى اسمعينى من أوج تلك السماء

قد كاد يقضى يقينى هلا أجبت النداء !

أراك لا تعرفينى — أزال عنى البهاء !

أجل تغير كنهى مذ جئت أرض الشقاء

بدات فيها جلالى بحلة من عظام

يا أخت روحى تعالى قد أضجرتنى الانام

*
* *

أرنو بليل كئيب وطرف جسمى كليل

اصغى ، ترى من مجيب أو من خيال جميل
يلوح رجع سناه فى طى غيم ثقيل
وكيف ، والجو قفر يحار فيه الدليل ؟
يا ويح هاذى الليالى أضحت لطرفى لثام
يا أخت روحى تعالى فالناس صرعى نيام
الناس ــ من هم ؟ جسوم ضاعت بهن النفوس
ان يرقدوا فنعيم رقادهم فى البؤوس
واحسرتا ! انا منهم مادام جسمى اللبوس
ناموا ونفسى يقظى تهذى بذكر الشموس
ترجو انتهاء اعتقالى لكى تقض الخيام
يا أخت روحى ، تعالى تلقى اليك الزمام

*
* *

كانت لها الشهب عرشا وكنتما فى اقتراب
فاهبطت فهى تخشى وتنزوى فى الحجاب
تظل غرثى وعطشى لقوتها والشراب
تقتات بالصوم حينا وترتوى بالسراب

تعاف ثدى المحال ينز منـه الاوءام
يا أخت روحي ، تعالى قد حان عهد الفطام

*
* *

يا أخت روحى الحزينه إلى متى ذا الصدود ؟
أو أنت مثلى سجينة قد أثقلتك القيود ؟
مرضت فى الارض يأساً ولا صديق يعود ؟
يا أخت روحى ، صبراً ! فالملتقى فى الخلود

*
* *

لاحت قصور الخيال كومضة فى الظلام
أكلهن خوالى ؟ ما من يرد السلام ؟

يا أخى يا أخى

يا أخى ، يا أخي ، المصاعب شتى
وبعيد مرادنا والموارد

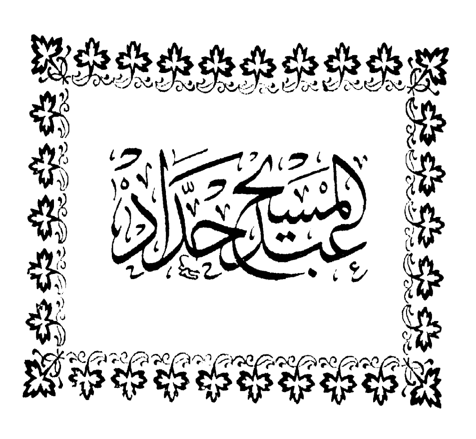
وامام العيون درب عسير
لم تسر قبلنا عليها الاوابد

مظلم ، موحش ، كثير الافاعى
والسعالي المسهويات الطرائد
غير أن المسير لابد منـه
ان أردنا ادراك بعض المواعد
فلنسر فى الظلام ، فى القفر ، فى الوحشة ، فى
الويل — فى طريق المجاهد
فلنسر أعزلين إلا من الحق
سلاحاً ، والفكر حاد وقائد

وإذا اشتدت الزئاب عواء
فلنقابل عواءها بالنشائد
وإذا حلو لك الظلام أضاءنا
مشعل القلب مثل نار المواقد

يا أخى ، يا رفيق عزمى وضعفى
سر نكابد ، إن الشجاع المكابد !
فاذا ما — عييتُ تسند ضعفي
وأنا بعـد ذا لضعفك ساند

سر ، تقدم لكى نخط طريقاً
لأباة الهوان عند الشدائد
ياأخى ، ياأخى ، المصاعب شتى
غير أنا فى سيرنا غير واحد
فلنسر ، فلنسر ، وإما هلكنا
قبل ادراكنا المنى والمواعد
فكفانا إنا أبتدأنا وإنا
إن عجزنا فقد بدأنا نشاهد


عبد المسيح حداد

الله يسعده ويبعده

لم يكن من يستطيع من يفهم أصل الخلاف بين ابراهيم الصالح وأخيه فريد وقد بدأ الخلاف بينهما فى أول أسبوع وصل فيه الصغير الى هذه البلاد . وبعد أن كان ابراهيم يستعد لاستئجار منزل خصوصى يشترى له أثاثاً جميلا ليعيش مع أخيه فريد كعائلة صغيرة لبث فى غرفته المفروشة وطرد أخاه من عنده فاضطر المسكين وهو دون السابعة عشرة الى أن يستأجر غرفة لهزرية جداً وأن يعمل كأجير فى محل تجارى ليعيش مستقلا

حكى لى فريد الصغير عن خلافه مع أخيه فقال انه لا يعلم لماذا كرهه أخوه ولم يأثم أمامه ولا أخل باعتباره كأخيه الاكبر وولىّ نعمته ولكنه اسبب بسيط جداً ارتأى ابراهيم أن يفترقا وأن يعيش كل منهما لنفسه ومذ منعت اجتماعاتهما معاً إلا إذا كانا وحدهما وإذذاك يستعمل ابراهيم سلطته على أخيه فيأمره أمراً وينفض طرف سترته

بأصابعه علامة أنه هكذا يريده أن يعمل وإذا أبي فلا يكون مسؤولا

ان خلاف الاخوين على هذه الصورة أمر غريب جداً فليس بينهما من خطأ ارتكبه أحدهما ضد الآخر ولا بينهما مالا يمحى على أن الاثنين ناجحان بأشغالهما وابراهيم رجل يبلغ الخامسة والثلاثين وقد صار له نحو عشرين سنة يعمل فى أميركا ولما أنهى فريد المدرسة الابتدائية استقدمه اليه على أمل أن يفتحا محلا تجاريا يكون فيه رئيساً وأخوه مديراً الا ان الامور انتهت بالجفاء بين الاثنين فى أول أسبوع لوصول فريد الى أميركا .

أما فريد فشاب ذكي له المام بالعلوم وولع بالمطالعة . قليل الكلام ولكنه رصين لايتكلم الا اللازم الذي يفيد عكس أخيه الاكبر فانه كثير الكلام كثير الدعوى يتدخل فى كل موضوع ويحشر نفسه فى كل مشكل وقد ولع أيضاً بالمطالعة الصحفية والكتبية وانما ولعاً سطحياً فكان يحفظ أسماء أعاظم الرجال من سياسيين وعلماء

وفلاسفة وشعراء فاذا تكلم فى اجتماع يكثر من ذكره تلك الاسماء فينظر الناس اليه كرجل عليم فى صدره كنوز علم وعرفان فاذا كان الحديث عن السياسة أسرع فذكر بسمارك وغلادستون وقال فلان قال كذا وكذا ومن اطلع على كتبه أو ما قاله بسمارك أو غلادستون ليكذبه ؟ واذا كان الحديث عن الشعر ذكر فى الحال المتنبى وأبا العلاء مع بعض أبيات لكليهما يقولها باللفظ المكسر ثم يعمق بتاريخ الشعر فيذكر هوميروس ويتدرخ بالاسماء الى هيكو وموسيه ووو . . حتى يسكت الحاضرون ويعطوه موقف الكلام ولا يعدم أن يرى منهم إعجاباً بسعة معارفه ووفرة علومه حتى صار عندهم مرجعاً لكل أمر ومضرب المثل فى العلم بكل باب من أبوابه .

ودام هذا معه حتى وصل فريد الى نيويورك فصار يحضر مع أخيه بعض الاجتماعات ويراه راكباً مركب الشطط بأكثر أحاديثه فكان يسكت أولاً حياء منه ولكنه بعد أن استأنس صار يعترض على غلط أخيه ويصلحه فكان

ابراهيم يحرق الارم غيظاً ويلعن الساعة التى وصل فيها أخوه لينزع عنه مقامه كعالم بين الناس

ومرة كان الاخوان فى سهرة حافلة وكان الفونوغراف يشنف أسماع الحاضرين والكؤوس دائرة عليهم وآخر اسطوانة سمعوها فذهبوا بسحرها كانت اسطوانة للصلبان ينشد فيها « يا ليل لصب . . . » فكان بعضهم يعيدها ويعيدها ويساعده غناء بها واستشهاداً بمعانى أبياتها الجميلة حتى وقف عند « رقد السمار وارقه » فقال فى القوم « من هذا السمار ؟ »

فأجاب أحدهم وقال : « أظن أن السمار هو الذى يدق المسامير »

فضحك الكل من جوابه

وقال ثان : « أظن السمار هو الهر أى السنور لا بل السنمار »

وقال ثالث : « لا بل هو السمرمر الذى يطارد الجراد »

واختلف القوم على معنى الكلمة وابراهيم الصالح

يتنحنح وقد غاب عن الحضور بفكره ليأتى لهم بمعنى الكلمة لهم فكان كلامه فصل الخطاب ، وأما أخوه الصغير فريد فكان الحال عنده كالتياترو فما كان يهدأ من الضحك بكل ما استطاع شدقاه وبكل ما فى رئتيه من القوة

وأخيراً صاح صائح وقال : « عندنا ابراهيم الصالح ونتجاسر على تفسير الكلمة فلنسمعه الآن يحل لنا المشكل »

وسكت الحاضرون ووقف الفونغراف وصاروا كلهم آذاناً مستعدة للسماع وعيونهم مصوبة على نقطة واحدة هى وجه ابراهيم الصالح

عندئذ لم يعد لابراهيم من مهرب ، فعار عليه أن لا يحل مشكلة صغيرة كهذه وهو لم يعودهم ذلك ففتح فمه أولا ببطء كلى وعيناه محملقتان ووجهه يتطاول وكان بطرف نظره يحدج أخاه فريداً لهذا تلعثم قليلا ولما تحنن الله على صبر القوم خرجت من فيه كلمة « أظن » خمس مرات وبين كل مرة وأخرى فرصة دقيقتين حتى أخيراً فاض بحل المشكل طارحاً عنه التردد المصنع وقال « ان السمار هو

السامرى عزول اليهودى ويظهر أن قائل تلك الابيات يهودى فيكون المعنى أن العدو نام وهو لم ينم بل أرقه الالم»

ويظهر ان فريداً فى تلك الساعة نسى ان أخاه الاكبر كان المتكلم ولهذا استعان بكل مافى قدرته على الضحك حين كان الكل صامتين وعلى وجوههم سيماء الرصانة يتوقعون القول الفصل من رب العرفان عندهم وهذا مادعا ابراهيم أن يستشيط غيظا من أخيه فشتمه ولولا حرمة الناس لكان ضربه فانتبه فريد لامره وعقب ضحكاته الطويلة عبوسة فجائية فاستصفح أخاه وأقر بانه مخطىء وانه نسى نفسه لتفاسير القوم كلمة « سمار » البعيدة الصواب

عندئذ قال له أخوه : « أنت » يافريد مثل كل ولد يأتى من سوريا مملوء دعوى ولا تحترم معارف الآخرين بل تظن ان ماتلقنته فى المدرسة هو كل العلم مع انه ينقصك تهذيب كثير . والآن « ياعيب الشوم » دعوتنا تخجل أمام الناس فقم بنا قم »

وقد ألح الحاضرون على ابرهيم ان يعدل عن فكره

بالرحيل وأن يهدىء روعه قليلا وأن أخاه سيتعلم فيما بعد فيحسن سلوكه ويعرف كيف يجالس الناس .

وكان أحد الحاضرين الذين فسروا الكلمة شديد الاستياء من جواب فريد لاخيه بأن تفاسير القوم أضحكته فخاطبه بملء الاشمئزاز قائلا : « وهل عندك تفسير أحسن أى نعم نحن لم نتعلم فى المدارس مثلك ولكن لا أظن ان كلامنا يوجب ضحك الناس الا اذا كان ضحكك بلا سبب والضحك بلا سبب من قلة الادب . »

هنا تبدلت هيأة فريد الصغير فقال بصوت لطيف والحيرة آخذة منه مأخذا « اعذرونى يا اخوان على ما بدر منى فانا لم أقصد بضحكى الحط من كرامة الذين فسروا كلمة « سمار » بل ان تفاسيرهم جعلتنى أضحك لاننا فى مجلس سرور ويجوز فيه لاى كان أن يضحك . »

أما ابرهيم فظل واقفاً يشد بذراع أخيه ليخرج من تلك الجلسة لئلا يحدث مايكدره أكثر . ولكن رجلا متقدما فى السن أعجبه منطق فريد فنهض باسما وتقدم الى

ابراهيم سائلا اياه أن يعود الي مكانه لمحو أثر الخلاف خوفا على خاطر الصغير القادم من البلاد فقد شعر بنفسه ان فريداً انكسر خاطره فاضطر ابراهيم الى الجلوس وعاد الرجل المتقدم فى السن فقال لفريد : « يافريد لاتزعل يا ابنى لا بأس عليك مسألة صغيرة . لا تستحى فكل الحاضرين اخوان أى يا ابنى اقعد وقل لنا الآن كيف تفسر سمار لنضحك نحن عليك كما أنت ضحكت علينا . »

فضحك القوم سلفاً على فريد ماعدا ابراهيم الذى كان السم يغلي فى قلبه ولكنه لم يجسر ان يعترض ولما رأى فريد ان الحاضرين سرى عنهم تبسم وقال :

« إن كلمة سمار جمع سمير والسمير هو الذى يسهر الليل فيكون معنى الشاعر أن الساهرين ناموا إلا هو فقد حرمه النوم ألم يعذبه »

فضحك ذلك المتقدم فى السن ضحكة كبيرة وقال : « أى والله الآن أخذنا ثأرنا منك » وضحك اضحكته

الحاضرون إلا ابراهيم الذى نهض فى الحال يريد الذهاب مع أخيه بداعى أن السهرة طالت

تلك السهرة لم ينم فريد مع أخيه ومنذ تلك السهرة لم يعد يضم الاخوين اجتماع وعند مايسأل ابراهيم عن سلوك أخيه يهز رأسه ويتنهد قائلا : « ما أحد اشترى البلوى لنفسه مثلى فقد كنت بلا هم فجئت بأخى ليزيد سرورى فكان أنه حرمنى الراحة ولكن أميركا واسعة فالله يسعده ويبعده

فى بيت الميت

عندما مات طانيوس المر ظل بيت الفقيد مقصد المعزين أسبوعاً كاملا ليل نهار وقد خيف أن يكون بلاء أهل الفقيد من كثرة المعزين أكثر من فقدهم المرحوم ولكن هى العادة السورية فى هذه الاحوال تأخذ مأخذها وهو التقليد يجرى مجراه ولو تقطعت القلوب وتفتت

الا كباد وتحطم إناء الصبر . أهل الميت يسمعون تعازى من أفواه المعزين كأنهـا أمثولات تعلمها قائلوها من جملة الصلوات التي تقال كل يوم وإنى أنا كاتب هذه الحكاية أشعر بكل ما فيّ من العواطف مع الفاقدين ليس على من يفقد بل على جلادتهم فى استماع فلسفة التعازى

الا أنه من نعم المولى ان الاصطلاح فى التعزية أن يكون وقتها قصيراً جداً فالمعزى يبقى قبعته بيده واذا كان فى الشتاء يظل لابساً سترته العليا وما الداعى الى هـذا الاختصار ميل من القوم الى التخفيف عن أهل الميت بل كثرة القادمين حتى يضيق عنهم المكان واذ ذاك يخرج فوج ليعطي مكانا للفوج القادم جديداً .

أما أهل الميت فجلوس بلا حراك وأذان بلا السـنة وعيون تنظر أحضانها وشفاه تتمتم كلمتين لـكل قادم وكل مودع وهما « ورأسك سالم » جوابا على التحية فى التعزية لدى الدخول والخروج وهى « عوضنا الله بسلامة رؤوسكم » والمرحوم طانيوس المر كنت أعرفه معرفة خارجية فلم

أزره في بيته بحياته ولكن صديقي بطرس كرواني جذبني جذباً لنأخذ خاطر أهل الفقيد قائلا لى ان التعزية واجبة على كل عارف ولا فرق نسيباً كان أم صديقاً أم من المعارف .

وهكذا كان ، ذهبنا وكان حضرة صديقي أبرع مني في الكلام فقد دخلت الى بيت الميت وانا كالجنين في عالم التقاليد فقد هممت بالقاء التحية التى أقولها في كل الاوقات الا أن صديقي بطرس رفع كفه ووضعه على فمي فجعلني أبلع « نهاركم سعيد » ثم همس باذني أن أقول « الله يعوضنا بسلامتكم » فقلت وجلست كاني من أهل الميت على ما وصفت وأزيدهم بعدم التمتمة لان المسألة لا تعنيني وبنظر الاشباح من كل جهة لان حضني كان مملوءاً بسترتي المطوية وفوقها قبعتي وقد احمر وجهي خجلا لاني كنت الوحيد النازع عنه سترته .

بعد سكوت خمس دقائق فتح بطرس فاه بالكلام فقال « قبل أن مات اسكندر الكبير عرف أن آخرته قد اقتربت وأن أمه ستحزن عليه حزناً عميقاً فدعاها اليه

قبل موته وقال لها وصيتى إليك يا أماه أن تأدبى مأدبة بعد موتى وتدعى إليها كل الناس وعندما يجلسون الى المائدة قولى لهم إن من لم يذق حزناً على حبيب له فليمد يده ويأكل وهكذا كان. فبعد وفاته أدبت مأدبة ودعت إليها جميع الناس ولما جلسوا الى المائدة قالت لهم ما أوصاها ابنها اسكندر أن تقوله فلم يمد أحد يده للطعام ، فعرفت إذذاك أن كأس الموت دائرة على الجميع ولهذا تعزت فى مصابها الجلل »

سمعت هذه الموعظة فكبر قائلها بعينى وقلت فى نفسى ياضيعان ما تعلمته فى المدارس والله ان بطرس فاقنى بأسلوبه المعزى وقال أحسن موعظة تقال فى محلها ، وكأنى نسيت نفسى أنى موجود فى هيكل الصمت فقلت لرفيق «أحسنت والله بهذه التعزية إنها لحكمة منزلة »

أما الحاضرون ولم يكونوا كثاراً لان زيارتنا لاهل الميت كانت بعد أسبوع وقد بدأت حركة التعزية تقل فقد سمعوا الموعظة الجميلة كأنهم لم يسمعوا شيئاً البتة وقد

عجبت لامرهم فقلت فى نفسى لعلهم طمطمانيون لم يفهموا معنى الذى قيل أمامهم

ولم يكد ينهى بطرس كلماته الدرية حتى وافى البيت فوج مؤلف من ثلاثة رجال ولان المكان واسع والزوار قليلون بقينا فى أما كنناابل بقى بطرس جالساً واضطررت أن لا أتحرك لانه هو الزنبرك لهذه الزيارة .

ولما جلس القادمون جديداً فتح أحدهم فاه بالكلام وفيما هو يهم ليتكلم حزنت على نفسى وقلت يالله ما اجهلنى فاني لا أفهم شيئاً من العادات والتقاليد ولم أمرن نفسى على الكلام اللازم فى كل حين — أما المتكلم فبدأ بقوله

هذا حال الدنيا . الموت محتم على كل الناس لامهرب منه . كان اسكندر الكبير قد فتح الدنيا بأسرها وهو فى الثلاثين من عمره . . . »

وفيما هو يخبرنا عن الاسكندر قلت فى نفسى . موعظة ثانية تأتينا وقد حتمت على أن أقصد المكتبة العمومية بعد هذه الزيارة لاطالع حياة ذلك الرجل العظيم

الذي كل تاريخه مواعظ لازمة للبشر في حالات المصائب وقد تحولت الى اصغاء تام لاسمع المتكلم فلا تفوتني الموعظة الثانية ولكن شد ما كان فشلي عند ما سمعت منه نفس الموعظة التي أخبرها بطرس ولهذا استأت في داخلي أيما استياء .

عندئذ هم رفيقي بالنهوض لانه رأى فوجا آخر مؤلفاً من قادمين اقتربا من الباب فكبست على ركبته وهمست في أذنه اني أريد أن أبقى حتى نخرج كلنا معاً فسايرني بطرس مضطراً ودخل القادمان فتليا افشين التعزية وجلسا . وما هي الا لحظة حتى فتح كبيرهما فاه بالكلام فسمعته يقول « ما هان علينا موت المرحوم ولكن أمر الله لا مرد له هكذا قدر وكان فسبحان الدائم . يحكى ان اسكندر ذا القرنين شعر بدنو أجله . . . »

هنا تنحنحت قليلا فلاحت مني لفتة الى صديقي بطرس فرأيته يخط وجهه ابتسامة ولكن في الحال أدرت وجهي عنه الى ناحية المتكلم لاسمع حكاية اسكندر

ذا القرنين وبعد سماعي جملتين من حديثه بدأ وجهى يخط ابتسامة عريضـة وللحال خوفا من أن تنتهى الابتسامة بضحكة ونحن فى هيكل الحزن والخشوع نهضت ونهض معى رفيقى فقلت

« بالاذن بلا قطع حـديث حضرة المتكلم ونهاركم سعيد جميعاً » وخرجت وتبعنى بطرس ولمـا صرنا خارج البيت أمسكنى صـديقاً مستوقفاً وقال والسم يقطر من وجهه :

« مانفعك ونفع علمك اذا كنت لاتفهم ان فى بيوت أهل الموتى لا يقولون عبارة « نهاركم سعيد » وقد أفهمتك عند مادخلنا ان لاتلفظها فبلعتها فلماذا نسيت هذا الامر عند ماخرجت » ؟

فقلت له دعنى من عتبك يابطرس واخبرنى أين قرأت القصة التى قلتها فى بيت الميت فقال انه سمع جده يرويها فى مأتم شيخ القرية . فقلت وأين قرأها جدك . فقال لا بد انه سمعها من جده . فقلت له اذا فى مرة ثانية أضبط التاريخ

وقل هكذا : « حدثني جدي عن جده عن جده حتى تصل الى معاصر لاسكندر الكبير . »

فضحك بطرس وصفح عني وقال وهو يصافحني ليأخذ سبيلا غير سبيلي

« اضحك بسرك فاننا لم نكمل الساعة في بيت المرحوم والا لكنا سمعنا حكاية اسكندر الكبير لا أقل من عشرين مرة »

فأجبته ولعلي قلت الصواب . « لو كنت موضع أهل الميت لقلت للناس المرحوم استراح من هذه الدنيا ومن مواعظكم »

وودعت بطرس وسرت في طريقي فالتقيت بجماعة عرفت منهم واحداً ولما رآني دنا مني مسلما وأخبرني انه ذاهب ليأخذ بخاطر آل المر فأخبرته اني آت من تعزيتهم الله يساعدهم . فاعاد « الله يساعدهم » وزاد « ويعينهم » وقد أخبرته كيف اني دخلت بيت الميت ولم أقل عبارة تعزية أعزي بها المساكين لاني لا أفهم الاصطلاحات فضحك

مى وقال « أهى مسألة فلسفة . احك قصة فيها مغزى وعز بها الجماعة » فقلت وما عساك أن تحكى أنت ؟

فبدأ يخبرني قصة اسكندر ذى القرنين ولكنى قاطعته قائلا اني أعرفها وأشرت له ان يلحق بأصحابه ليعزوا الجماعة وليساعدهم الله — ويعينهم — ويرحمهم

رأس الحكمة

الطفل إذا خاف يفزع الى أمه ، كذلك كل ضعيف إذا شعر بخطر محدق به يفزع الى قويه

وللنفس كما للجسد مفزعة وإنما ما لا ترى كالنفس وكل شيء صفته من جنسه ، فكما أن النفس لا ترى كذلك مفزعتها لا ترى

عندما تحدق بالمرء المخاطر تفزع نفسه الى أمها الخفية كما يفزع الطفل الى أمه إذا خاف على مرأى منا

أما فزع النفس الى أمها فيظهر للناس بالخشوع اذ

اشتمل عليهم الخوف من قوة لا قبل لهم على مقاومتها جسدياً لم أكن منذ سنين لأثق بالخشوع والمتخشعين ، وكثيراً ما أضحكني أبصاري أناساً جامدين أمام غير مرئي تخشعوا له بعيون مغربة وأياد مكتفة وشفاه متمتمة ، إلا أني لم أعد أضحك منهم بعد حادثة عرضت لي فاكتشفت سر غير المرئي الذي يقف الناس أمامه مصلين

كان ذلك في البرية حيث انفردت بنفسي آمناً من الوحش والانسان بل من الانس والجان وما أن اكتنفتني وحشة الخلوة حتى تلبدت السماء بالغيوم فاكفهر النهار وانقلب ظلاماً وأخذت الرعود تقرقع بملايين ملايين طبولها وانبثق من الفضاء العالي سهم من نار وصل أوله لارض لولبياً من بعيد ولم يخرج ثمت نصفه من الشفق فشعرت بخوف لم أكن لأشعر به لو أني وجدت بين نابي جيش معاد وأنا في ساحة الحرب أعزل ، ثم أحسست بأن نفسي كذلك قد خافت ففزعت الى أمها في السموات ولم أدر إلا وأنا متخشع أمام ما لا أرى منه الا الجبروت على ما ندعوه كوناً

فلما ذهب عنى الخوف إذ هدأت الحال وجدتنى فى تلك البرية واقفاً أمام غير المرئى كواحد من الذين ضحكت من وقوفهم جامدين مكتفين متمتمين متخشعين

ان المرء يدرك عن طريق نفسه سراً فى المخاطر غريباً فى كيانه إذ تفزع نفسه الى أصلها العظيم الذى لا يرى كذاتها كما تفزع صغار الافراخ الى أمهاتها بدافع غريزى هو فى الحيوان كما هو فى الانسان . حينئذ يخشع الصغير الضعيف أمام العظيم القوى المنبثق منه والنفس شيء من « ما لا حد له » فاذا ما نبهتها المخاطر ودت الالتحاق بأصلها العظيم فازعة ودليلنا على ذلك خشوعاً ابان الخطر

والنفس لا تكلمنا لنفهم منها أصلها وفصلها ولكننا نعلم أنها إذ تحتك باسلاكها المرتبطة بهامع الالوهية ترتجف لقوة ما لا ندركه مما لا يرى فنخشع مضطرين بقصد أم بغير قصد خشوع الصغير اما الكبير

صعدت يوماً الى جسر بروكلن لاجتيازه مشياً على قدمى فأرى والمس عظمة وصل اليها العقل البشرى المخترع،

ولما صرت فى منتصفه مددت بصرى الى نصفه أمامى ثم التفت فمددت بصرى الى نصفه ورائى فأدهشنى بناء عجيب فوق الماء ينقل شطر المدينة العظمى الى شطرها الثانى ، ولكنى ما لبثت حتى شخصت الى العلاء فرأيت من النجوم فى الفضاء ما لا عد له ، فحملتنى نفسى على جسر هيولى الى فوق حيث ديار أهلها ولما بان لى ذلك الجسر الهائل قلت فى داخلى » عظيم جسر بروكلن يشيده العقل البشرى ولكن ما هى نسبته لذلك الجسر الهائل الذى يحمل ملايين ملايين الاجرام بين سيارات وثوابت ويربطها ببعضها بقوة لا ندرك كنهها »

فسمعت إذذاك نفسى تهتف قائلة —

« تخشع أيها الانسان أمام ما لا تدركه العقول »

فقلت وقد جمدت وكتفت ساعدى وتخشعت

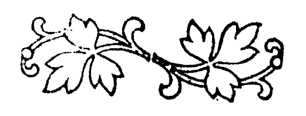
« الخشوع أيها النفس خوف فهل خلق الانسان ليخاف ؟ فأجابت نفسى وقالت :

« بلى الخشوع من الخوف ، والخوف من الفكر ،

والفكر من النفس ، والنفس من اللانهاية التى كل ما تراه أمامك وفوقك ووراءك وتحتك وما لا تراه بعض بعضها فاذا احتكت النفس بأسلاك توصلها بأصولها نبهت الفكر فتنفس الفكر بالخوف والخوف بعث الخشوع ، والخشوع أمام القوة غير المحدودة همس الانسان الصغير فى أذن الفضاء العظيم عن أن المرء قد عرف ما هو فى هـذا العالم ومن هو من هـذا العالم ولهذا فهو يفزع الى ربه كما يفزع الطفل الى أمه والضعيف الى قويه

إذذاك أدركت الحكمة بقول ذلك الحكيم القائل :

« رأس الحكمة مخافة الله »



ص

٢٠ ألف يوم ويوم مزين بالصور

٢٥ ديوان حافظ فى ثلاثة أجزاء

٦ فلسفة الحياة للكونت تولستوى

٤ السلطة والحرية « »

٤ كلمات الفلاسفة

١٢ الفخرى فى الآداب السلطانية

١٢ امين الريحاني — ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب

بقلم توفيق الرافعى

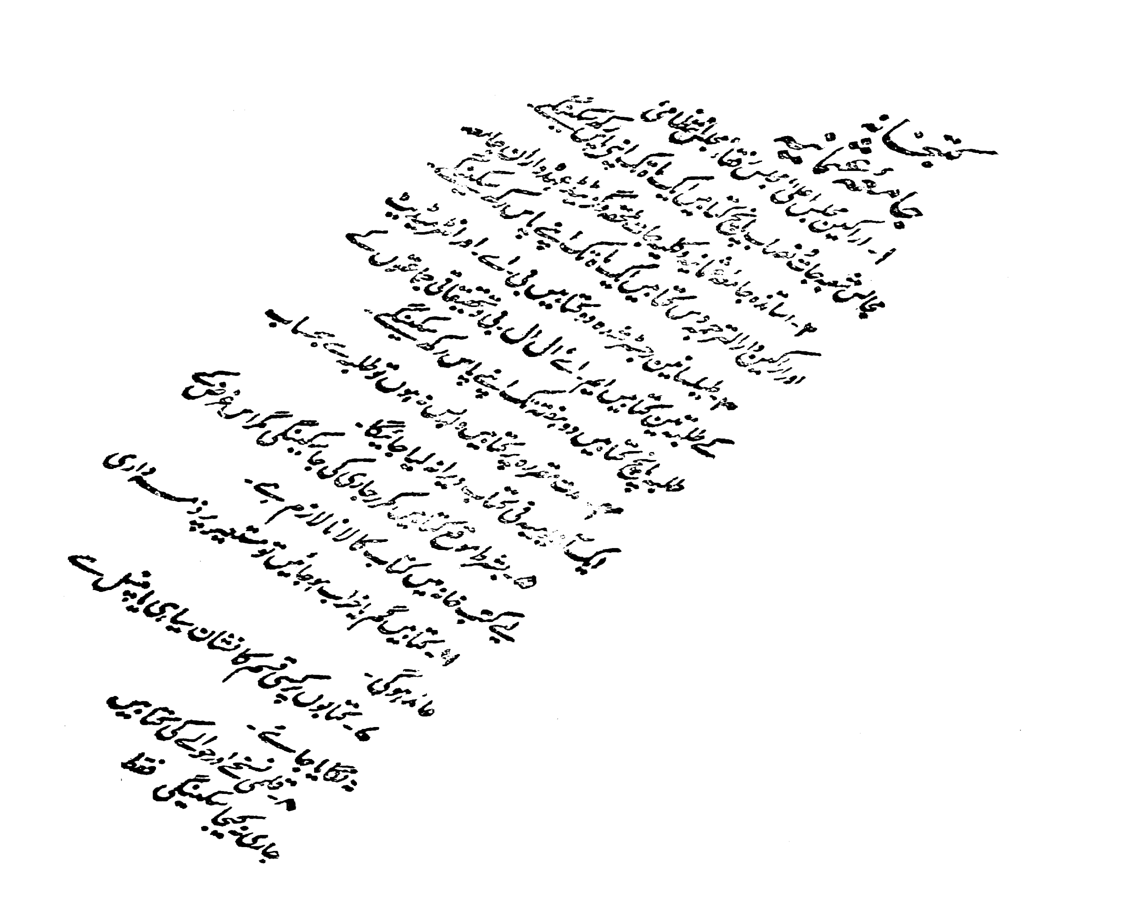
٥ قبل الزواج وبعده

١٠ الاسلوب المفيد عربى انكليزى

(لمكتبة الهلال (قائمة) بأسماء الكتب وأثمانها ترسل لمن يطلبها)

مجانا

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائے گا۔



کتب خانہ جامعہ عثمانیہ

۱۔ اراکین مجلس اعلیٰ و مجلس [illegible] ایک وقت میں [illegible] کتابیں لے سکیں گے [illegible]

مجالس تعلیمات و نصاب [illegible]

۲۔ اساتذہ جامعہ عثمانیہ [illegible] ایک وقت میں [illegible] کتابیں لے سکیں گے [illegible]

۳۔ طلبہ ایم۔ اے، ایل ایل بی [illegible] کتابیں لے سکیں گے [illegible] طلبہ [illegible]

۴۔ مدت مقررہ [illegible] کتابیں واپس [illegible] جاری کی جا سکیں گی [illegible]

۵۔ [illegible] کتب خانہ میں کتاب کا لانا لازم ہے۔

۶۔ کتابیں گم یا خراب ہو جائیں تو [illegible]

۷۔ کتابوں پر کسی قسم کا نشان [illegible] نہ لگایا جائے۔

۸۔ قلمی نسخے اور حوالے کی کتابیں جاری نہ کی جا سکیں گی۔ فقط